مغامرات القندس بادي

ثورنتون دبليو برجس



مُغَامَرَاتُ الْقُنْدُسِ بادي

مُغَامَرَاتُ الْقُنْدُسِ بادي

تأليف
ثورنتون دبليو برجس

ترجمة
لبنى عماد تركي

مراجعة
مروة عبد الفتاح شحاتة

هنداوي

مُغَامَرَاتُ الْقُنْدُسِ بادي

ثورنتون دبليو برجس

The Adventures of Paddy the Beaver

Thornton W. Burgess

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

رسم الغلاف: حنان بغدادي.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٤٠٤ ٧

المحتويات

الفصل الأول

الْقُنْدُسُ بادي يَشْرَعُ فِي الْعَمَلِ

أَعْمَلُ أَعْمَلُ طُولَ اللَّيْلِ،
حِينَ تَسْطَعُ النُّجُومُ،
أَعْمَلُ أَعْمَلُ طُولَ النَّهَارِ،
وَلَا وَقْتَ لِلَّهْوِ.

أَلَّفَ الْقُنْدُسُ بادي تِلْكَ الْأَبْيَاتَ الْقَصِيرَةَ بَيْنَمَا كَانَ يَعْمَلُ بِكَدٍّ عَلَى بِنَاءِ السَّدِّ الَّذِي كَانَ سَيَصْنَعُ الْبِرْكَةَ الَّتِي تَاقَ إِلَيْهَا فِي جَوْفِ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ. طَبْعًا لَمْ يَكُنْ مُحِقًّا تَمَامًا فِيمَا قَالَهُ عَنِ الْعَمَلِ طَوَالَ اللَّيْلِ وَطَوَالَ النَّهَارِ. كَمَا تَعْلَمُونَ، لَا أَحَدَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ عَلَى الدَّوَامِ؛ فَلَا بُدَّ لِلْجَمِيعِ مِنَ الرَّاحَةِ وَالنَّوْمِ. وَكُلُّنَا لَا بُدَّ أَنْ نَلْهُوَ قَلِيلًا حَتَّى نَكُونَ فِي أَحْسَنِ حَالٍ؛ لِذَا لَمْ يَكُنْ صَحِيحًا أَنَّ بادي كَانَ يَعْمَلُ طَوَالَ النَّهَارِ بَعْدَ عَمَلِهِ طَوَالَ اللَّيْلِ. وَلَكِنَّ الْحَقَّ أَنَّ بادي لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ وَقْتٌ لِلَّهْوِ؛ فَقَدْ كَانَ أَمَامَهُ عَمَلٌ كَثِيرٌ، وَقَدْ حَظِيَ بِفُرْصَةٍ لِلَّهْوِ أَثْنَاءَ الصَّيْفِ الطَّوِيلِ، وَالْآنَ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعِدَّ لِلشِّتَاءِ الْبَارِدِ الطَّوِيلِ.

وَلَا أَحَدَ مِنَ الصِّغَارِ الْمُجْتَهِدِينَ سُكَّانِ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ وَالْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ وَالْبِرْكَةِ الْبَاسِمَةِ، يُمْكِنُ أَنْ يُضَاهِيَ الْقُنْدُسَ بادي، وَلَا حَتَّى ابْنُ عَمِّهِ فَأْرُ الْمِسْكِ جيري. فَالسِّنْجَابُ جاك السَّعِيدُ وَالسِّنْجَابُ الْبَرِّيُّ الْمُخَطَّطُ يُخَزِّنَانِ الطَّعَامَ مِنْ أَجْلِ الشُّهُورِ الْبَارِدَةِ الطَّوِيلَةِ الْعَاصِفَةِ بِالرِّيَاحِ الشَّمَالِيَّةِ وَالصَّقِيعِ، وَيَبْنِي فَأْرُ الْمِسْكِ بَيْتًا جَمِيلًا يَجِدُ فِيهِ الدِّفْءَ وَالرَّاحَةَ، وَلَكِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَا يُسَاوِي شَيْئًا مُقَارَنَةً بِعَمَلِ الْقُنْدُسِ بادي.

فَكَمَا قُلْتُ مِنْ قَبْلُ، كَانَ بادي قَدْ حَظِيَ بِفَتْرَةِ لَهْوٍ طَوِيلَةٍ أَثْنَاءَ الصَّيْفِ. وَكَانَ يَذْرَعُ الْجَدْوَلَ الضَّاحِكَ جِيئَةً وَذَهَابًا، وَيَتَتَبَّعُ مَجْرَاهُ حَتَّى مَنْبَعِهِ. وَطَوَالَ الْوَقْتِ يُفَكِّرُ وَيَتَفَحَّصُ الْمَكَانَ؛ لِكَيْ يَتَأَكَّدَ مِنْ رَغْبَتِهِ فِي الْبَقَاءِ فِي الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ. كَانَ عَلَيْهِ أَوَّلًا أَنْ يَتَأَكَّدَ مِنْ تَوَفُّرِ الطَّعَامِ الَّذِي يَسْتَسِيغُهُ. ثُمَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَأَكَّدَ أَيْضًا مِنْ تَمَكُّنِهِ مِنْ صُنْعِ بِرْكَةٍ بِالْقُرْبِ مِنْ حَيْثُ يَنْبُتُ ذَاكَ الطَّعَامُ تَحْدِيدًا. وَأَخِيرًا، عَلَيْهِ التَّأَكُّدُ مِنْ أَنَّهُ إِذَا صَنَعَ الْبِرْكَةَ وَبَنَى بَيْتًا فِعْلًا، فَسَيَجِدُ فِيهِ قَدْرًا كَبِيرًا مِنَ الْأَمَانِ. وَكُلُّ ذَلِكَ قَامَ بِهِ أَثْنَاءَ اللَّهْوِ. وَالْآنَ بَاتَ مُسْتَعِدًّا لِبَدْءِ الْعَمَلِ، وَعِنْدَمَا يَشْرَعُ بادي فِي الْعَمَلِ، فَإِنَّهُ يَعْكُفُ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ؛ فَهُوَ يَقُولُ إِنَّ ذَلِكَ هُوَ السَّبِيلُ الْوَحِيدُ إِلَى النَّجَاحِ، وَكُلُّنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ مُحِقٌّ.

يَسْتَطِيعُ الْقُنْدُسُ بادي أَنْ يَرَى فِي اللَّيْلِ مِثْلَ الثَّعْلَبِ ريدي وَالْأَرْنَبِ بيتر وَالرَّاكُونِ بوبي تَمَامًا، وَهُوَ يُفَضِّلُ اللَّيْلَ؛ لِأَنَّهُ أَكْثَرُ وَقْتٍ يَشْعُرُ فِيهِ بِالْأَمَانِ. وَلَكِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَى فِي النَّهَارِ أَيْضًا. وَعِنْدَمَا يَشْعُرُ بِالْأَمَانِ التَّامِّ وَبِأَنَّ أَحَدًا لَا يُرَاقِبُهُ، يَعْمَلُ نَهَارًا أَيْضًا. قَطْعًا كَانَ أَوَّلُ مَا يَجِبُ عَمَلُهُ هُوَ بِنَاءَ سَدٍّ فَوْقَ الْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ حَتَّى يَصْنَعَ الْبِرْكَةَ الَّتِي كَانَ فِي أَمَسِّ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا. فَاخْتَارَ بُقْعَةً مَفْتُوحَةً مُنْخَفِضَةً فِي جَوْفِ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ، نَمَا حَوْلَهَا الْكَثِيرُ مِنْ أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ الصَّغِيرَةِ، الَّتِي يُمَثِّلُ لِحَاؤُهَا طَعَامَهُ الْمُفَضَّلَ. وَكَانَ الْجَدْوَلُ الضَّاحِكُ يَخْتَرِقُ تِلْكَ الْبُقْعَةَ الْمَفْتُوحَةَ فِي مُنْتَصَفِهَا. وَعِنْدَ الْحَافَةِ السُّفْلِيَّةِ وَجَدَ الْمَكَانَ الْأَمْثَلَ لِبِنَاءِ السَّدِّ. فَلَمْ يَكُنْ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ يَكُونَ بَالِغَ الطُّولِ، وَعِنْدَمَا يَنْتَهِي مِنْهُ وَيَعْتَرِضُ طَرِيقَ الْمِيَاهِ فِي الْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ، فَلَنْ يَكُونَ أَمَامَهَا سِوَى أَنْ تَتَدَفَّقَ إِلَى الْبُقْعَةِ الْمُنْخَفِضَةِ وَتَصْنَعَ بِرْكَةً هُنَاكَ. فَبَرِقَتْ عَيْنَا بادي عِنْدَمَا وَقَعَتَا عَلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ. وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ قَرَّرَ الْبَقَاءَ فِي الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ.

وَالْآنَ بَعْدَ أَنْ صَارَ مُسْتَعِدًّا لِلشُّرُوعِ فِي بِنَاءِ السَّدِّ، اتَّجَهَ نَحْوَ أَعْلَى الْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ، حَيْثُ تَنْمُو أَشْجَارُ جَارِ الْمَاءِ وَأَشْجَارُ الصَّفْصَافِ، وَهُنَاكَ بَدَأَ عَمَلَهُ؛ فَرَاحَ يُقَطِّعُ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الْأَشْجَارِ بِأَسْنَانِهِ الْأَمَامِيَّةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي رُزِقَ بِهَا لِهَذَا الْغَرَضِ تَحْدِيدًا. وَبَيْنَمَا كَانَ يَعْمَلُ، شَعَرَ بادي بِالسَّعَادَةِ؛ فَالْمَرْءُ لَا يَشْعُرُ بِسَعَادَةٍ حَقِيقِيَّةٍ دُونَ عَمَلٍ.

الفصل الثاني

تَخْطِيطُ الْبِرْكَةِ

انْهَمَكَ الْقُنْدُسُ بادي فِي تَقْطِيعِ الْأَشْجَارِ مِنْ أَجْلِ السَّدِّ الَّذِي كَانَ يَنْوِي بِنَاءَهُ؛ فَكَانَ قَدْ تَعَلَّمَ فِي الْغَابَاتِ الشَّمَالِيَّةِ الَّتِي أَتَى مِنْهَا إِلَى الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ كُلَّ شَيْءٍ عَنْ تَقْطِيعِ الْأَشْجَارِ وَإِقَامَةِ السُّدُودِ وَحَفْرِ الْقَنَوَاتِ وَبِنَاءِ الْبُيُوتِ. فَقَدْ كَانَ وَالِدَا بادي عَلَى دِرَايَةٍ كَبِيرَةٍ بِمُجْرَيَاتِ الْأُمُورِ فِي عَالَمِ الْقَنَادِسِ، وَكَانَ بادي سَرِيعَ التَّعَلُّمِ؛ لِذَا كَانَ يَعْلَمُ الْآنَ مَا يَجِبُ أَنْ يَقُومَ بِهِ وَكَيْفِيَّةَ الْقِيَامِ بِهِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ. فَكَمَا تَعْلَمُونَ، يُهْدِرُ الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ الْوَقْتَ وَالْجُهْدَ فِي الْقِيَامِ بِالْأَعْمَالِ عَلَى النَّحْوِ الْخَاطِئِ، بِحَيْثُ يُضْطَرُّونَ إِلَى الْقِيَامِ بِهَا مِنْ جَدِيدٍ. فَهُمْ يَنْسَوْنَ أَنْ يَتَأَكَّدُوا مِنْ أَنَّهُمْ عَلَى صَوَابٍ؛ وَمِنْ ثَمَّ يَمْضُونَ قُدُمًا حَتَّى يَكْتَشِفُوا أَنَّهُمْ مُخْطِئُونَ، وَيَضِيعُ عَمَلُهُمْ كُلُّهُ سُدًى.

وَلَكِنَّ الْقُنْدُسَ بادي لَيْسَ مِنْ أُولَئِكَ النَّاسِ. فَبادي لَمْ يَكُنْ أَبَدًا لِيَثِبَ فِي النَّبْعِ مُنْحَدِرِ الْجَانِبَيْنِ دُونَ أَنْ يَتَرَيَّثَ، مِثْلَمَا يَفْعَلُ الْجَدُّ ضفدع. وَالْآنَ أَخَذَ يَنْتَقِي الْأَشْجَارَ الَّتِي سَوْفَ يُقَطِّعُهَا بِعِنَايَةٍ. فَلَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ وَقْتٌ يُضِيعُهُ فِي تَقْطِيعِ شَجَرَةٍ لَنْ تَكُونَ مُنَاسِبَةً لَهُ تَمَامًا بَعْدَمَا تَسْقُطُ. فَعِنْدَمَا تَأَكَّدَ مِنْ أَنَّهَا مُنَاسِبَةٌ، نَظَرَ إِلَى قِمَّتِهَا لِيَعْرِفَ إِذَا كَانَتْ — بَعْدَ أَنْ يُقَطِّعَهَا — سَتَسْقُطُ بَعِيدًا عَنِ الْأَشْجَارِ الْأُخْرَى؛ فَقَدْ تَعَلَّمَ ذَلِكَ عِنْدَمَا كَانَ صَغِيرًا طَائِشًا. فَقَدْ كَانَ يَذْكُرُ شُعُورَهُ بَعْدَمَا عَمِلَ بِكَدٍّ شَدِيدٍ فِي تَقْطِيعِ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ، وَنَبَّهَ جَمِيعَ أَصْدِقَائِهِ حَتَّى يُخْلُوا الطَّرِيقَ لِكَيْلَا يَتَعَرَّضُوا لِلْأَذَى إِثْرَ سُقُوطِهَا، ثُمَّ لَمْ تَسْقُطْ مِنَ الْأَسَاسِ؛ لِأَنَّ قِمَّتَهَا اشْتَبَكَتْ بِشَجَرَةٍ أُخْرَى. فَشَعَرَ بِخِزْيٍ بَالِغٍ لَمْ يَسْتَطِعِ التَّغَلُّبَ عَلَيْهِ فَتْرَةً طَوِيلَةً.

فَبَاتَ الْآنَ يَتَأَكَّدُ أَنَّ الشَّجَرَةَ سَتَسْقُطُ بَعِيدًا وَحَيْثُمَا يُرِيدُهَا تَمَامًا. ثُمَّ جَلَسَ عَلَى سَاقَيْهِ الْخَلْفِيَّتَيْنِ، مُرْتَكِزًا عَلَى ذَيْلِهِ الْعَرِيضِ كَدِعَامَةٍ، وَبَدَأَتْ رُقَاقَاتُ الْخَشَبِ تَتَطَايَرُ بِفِعْلِ أَسْنَانِهِ. فَكَمَا تَعْلَمُونَ، يَمْلِكُ بادي أَسْنَانًا مُمْتَازَةً لِلْغَايَةِ لِتَقْطِيعِ الْأَشْجَارِ، فَهِيَ طَوِيلَةٌ وَعَرِيضَةٌ وَحَادَّةٌ. كَانَ يَبْدَأُ بِقَضْمَةٍ غَائِرَةٍ، ثُمَّ أُخْرَى أَسْفَلَهَا بِمَسَافَةٍ قَصِيرَةٍ، ثُمَّ يَقْتَلِعُ قِطْعَةَ الْخَشَبِ الصَّغِيرَةَ الْوَاقِعَةَ بَيْنَ الْقَضْمَتَيْنِ. وَعِنْدَمَا يَتَوَغَّلُ فِي تَقْطِيعِ الشَّجَرَةِ مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ يُؤَدِّي إِلَى سُقُوطِ الشَّجَرَةِ فِي ذَلِكَ الِاتِّجَاهِ؛ يُكْمِلُ عَمَلَهُ حَتَّى يَبْلُغَ الْجَانِبَ الْآخَرَ. وَبِمُجَرَّدِ أَنْ تَبْدَأَ الشَّجَرَةُ فِي التَّمَايُلِ وَيَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّهَا سَتَسْقُطُ، يُهْرَعُ مُبْتَعِدًا عَنِ الْخَطَرِ. وَكَانَ يُحِبُّ مُشَاهَدَةَ تِلْكَ الْأَشْجَارِ الْعَالِيَةِ وَهِيَ تَمِيلُ إِلَى الْأَمَامِ بِبُطْءٍ، ثُمَّ أَسْرَعَ فَأَسْرَعَ؛ حَتَّى تَرْتَطِمَ بِالْأَرْضِ مُحْدِثَةً صَوْتًا مُدَوِّيًا.

وَبِمُجَرَّدِ أَنْ تَسْقُطَ، يُجَرِّدُهَا مِنْ فُرُوعِهَا إِلَى أَنْ تَصِيرَ الْأَشْجَارُ كَأَعْمِدَةٍ طَوِيلَةٍ. لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِالْعَمَلِ الشَّاقِّ لَهُ؛ فَقَدْ كَانَ بِاسْتِطَاعَتِهِ اقْتِلَاعُ فَرْعِ شَجَرَةٍ كَبِيرٍ بِقَضْمَةٍ وَاحِدَةٍ. وَكَثِيرٌ مِنَ الْأَشْجَارِ كَانَ يَتْرُكُ قِمَمَهَا الْمُورِقَةَ، وَعِنْدَمَا يَنْتَهِي مِنْ تَشْذِيبِ الْفُرُوعِ بِمَا يُلَائِمُهُ وَيُقَطِّعُهَا إِلَى أَطْوَالٍ مُنَاسِبَةٍ، يَشُدُّهَا وَيَجْذِبُهَا إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَنْتَوِي بِنَاءَ السَّدِّ فِيهِ.

وَهُنَاكَ يَضَعُ الْجُذُوعَ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ، وَلَيْسَ بِعَرْضِ الْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ كَالْجِسْرِ، وَإِنَّمَا يَضَعُهَا بِحَيْثُ تَكُونُ أَطْرَافُهَا الْكَبِيرَةُ مُتَّجِهَةً إِلَى أَعْلَى الْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ، الَّذِي كَانَ عَرِيضًا إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ وَلَكِنْ ضَحْلًا فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ. وَلِكَيْ يَحُولَ دُونَ طَفْوِ الْجُذُوعِ بَعِيدًا، كَانَ يُدَحْرِجُ الْحَصَى وَيُكَوِّمُ الطِّينَ عَلَى أَطْرَافِهَا الْمُورِقَةِ. وَرَاحَ يَرُصُّ تِلْكَ الْجُذُوعَ حَتَّى بَدَأَ الْمَاءُ يَرْتَفِعُ عَلَى جَانِبَيِ النَّهْرِ. ثُمَّ جَرَّ الْمَزِيدَ مِنَ الْجُذُوعِ وَكَوَّمَهَا فَوْقَ الْأُولَى وَحَشَرَ عِصِيًّا قَصِيرَةً بَيْنَهَا بِالْعَرْضِ.

وَطَوَالَ الْوَقْتِ كَانَ الْجَدْوَلُ الضَّاحِكُ يُوَاجِهُ صُعُوبَةً مُتَزَايِدَةً فِي التَّدَفُّقِ، فَصَارَتْ ضِحْكَتُهُ الْمُبْتَهِجَةُ أَقَلَّ بَهْجَةً وَفِي النِّهَايَةِ تَوَقَّفَتْ؛ لِأَنَّ الْمِيَاهَ لَمْ تَسْتَطِعِ الْمُرُورَ عَبْرَ كُلِّ تِلْكَ الْجُذُوعِ وَالْعِصِيِّ بِالسُّرْعَةِ الْكَافِيَةِ. وَحِينَئِذٍ قَرَّرَ سُكَّانُ الْبِرْكَةِ الْبَاسِمَةِ الصِّغَارُ أَنَّهُ آنَ الْأَوَانُ أَنْ يَعْرِفُوا مَا يَفْعَلُهُ بادي تَحْدِيدًا، فَانْطَلَقُوا إِلَى أَعْلَى مَجْرَى الْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ، تَارِكِينَ خَلْفَهُمُ الْجَدَّ ضفدع وَالضَّفَادِعَ الصَّغِيرَةَ فَحَسْبُ فِي الْبِرْكَةِ الْبَاسِمَةِ، الَّتِي سَتُفَارِقُهَا الْبَسْمَةُ لِبُرْهَةٍ.

الفصل الثالث

زُوَّارُ بادي الْكُثْرُ

كَانَ الْقُنْدُس بادي يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ أَنَّهُ سَيَسْتَقْبِلُ زُوَّارًا بِمُجَرَّدِ أَنْ يَشْرَعَ فِي بِنَاءِ السَّدِّ. وَكَانَ يَتَوَقَّعُ مَجِيءَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ؛ فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ أَيًّا مِنْهُمْ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ رَأَى قُنْدُسًا أَثْنَاءَ عَمَلِهِ مَا لَمْ يَرَوُا الشَّيْهَمَ الْبَدِينَ بريكلي بوركي، الَّذِي أَتَى مِنَ الشَّمَالِ أَيْضًا. لِذَا كَانَ يُرْهِفُ السَّمْعَ أَثْنَاءَ عَمَلِهِ، وَيَبْتَسِمُ لِنَفْسِهِ لَدَى سَمَاعِهِ صَوْتَ حَفِيفٍ خَافِتٍ هُنَا يَتْبَعُهُ حَفِيفٌ خَافِتٌ هُنَاكَ. فَقَدْ كَانَ يَعْرِفُ مَا يَعْنِيهِ ذَاكَ الْحَفِيفُ. فَكُلُّ حَفِيفٍ مَعْنَاهُ زَائِرٌ جَدِيدٌ. نَعَمْ، كُلُّ حَفِيفٍ مَعْنَاهُ زَائِرٌ جَدِيدٌ، وَلَكِنَّ أَيًّا مِنْهُمْ لَمْ يَظْهَرْ.

فَأَطْلَقَ بادي ضِحْكَةً خَافِتَةً وَقَالَ بِصَوْتٍ عَالٍ، كَأَنَّهُ لَا يُكَلِّمُ أَحَدًا بِالتَّحْدِيدِ: «يَبْدُو لِي أَنَّكُمْ تَخَافُونَ الظُّهُورَ أَشَدَّ الْخَوْفِ.» فَسَادَ السُّكُونُ الْمَكَانَ. وَلَمْ يَصْدُرْ أَدْنَى حَفِيفٍ بَعْدَ حَدِيثِ بادي. فَأَطْلَقَ ضِحْكَةً خَافِتَةً أُخْرَى. فَقَدْ كَانَ يَشْعُرُ فَقَطْ بِعُيُونٍ عِدَّةٍ تُرَاقِبُهُ، وَإِنْ لَمْ يَرَ أَيًّا مِنْهَا. وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّ تَوَخِّيَ زَائِرِيهِ الْحَذَرَ الشَّدِيدَ فِي الِاخْتِبَاءِ مِنْهُ يَرْجِعُ إِلَى خَوْفِهِمْ مِنْهُ. فَبادي أَكْبَرُ حَجْمًا مِنْ مُعْظَمِ سُكَّانِ الْمُرُوجِ وَالْغَابَةِ الصِّغَارِ، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ عِلْمٌ بِطَبِيعَةِ مِزَاجِهِ. فَالْأَسْلَمُ دَائِمًا أَنْ يَرْتَابَ الْمَرْءُ بِشِدَّةٍ فِي الْأَغْرَابِ. وَذَلِكَ أَحَدُ أَوَائِلِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَتَعَلَّمُهَا جَمِيعُ سُكَّانِ الْمُرُوجِ وَالْغَابَةِ الصِّغَارُ.

وَطَبْعًا كَانَ بادي يَعْلَمُ كُلَّ ذَلِكَ؛ فَقَدْ نَشَأَ عَلَى النَّحْوِ ذَاتِهِ. إِذْ كَانَ أَحَدَ الْأَقْوَالِ الْمَأْثُورَةِ الْمُفَضَّلَةِ لَدَى أُمِّهِ، الَّذِي لَمْ يَغِبْ عَنْ بَالِهِ قَطُّ: «تَأَكَّدْ أَنَّكَ مُصِيبٌ، وَحِينَهَا لَنْ تَأْسَفَ أَبَدًا.» وَالْوَاقِعُ أَنَّ ذَلِكَ الْقَوْلَ وَفَّرَ عَلَيْهِ مَتَاعِبَ جَمَّةً. لِذَا كَانَ الْآنَ عَلَى كَامِلِ الِاسْتِعْدَادِ لِأَنْ يُوَاصِلَ عَمَلَهُ وَيَدَعَ زُوَّارَهُ الْمُخْتَبِئِينَ يُرَاقِبُونَهُ حَتَّى يَطْمَئِنُّوا أَنَّهُ لَا يُمَثِّلُ خَطَرًا عَلَيْهِمْ. أَمَّا عَنْهُ فَكَانَ وَاثِقًا، إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ، مِنْ أَنْ لَا أَحَدَ مِنْهُمْ كَبِيرٌ بِمَا يَكْفِي

لِكَيْ يُسَبِّبَ لَهُ أَيَّ أَذًى؛ فَثَعْلَبُ الْمَاءِ الصَّغِيرُ جو هُوَ الْوَحِيدُ الَّذِي يَرْتَابُ فِيهِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ وَاثِقًا، إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ، أَنَّهُ لَنْ يُحَاوِلَ أَنْ يَخْتَلِقَ شِجَارًا مَعَهُ. لِذَا ظَلَّ يُقَطِّعُ الْأَشْجَارَ وَيَنْزِعُ عَنْهَا الْفُرُوعَ، ثُمَّ يَسْحَبُ جُذُوعَهَا إِلَى الْأَسْفَلِ عِنْدَ السَّدِّ الَّذِي كَانَ يَبْنِيهِ. وَكَانَ يَدْفَعُ بَعْضَهَا لِتَطْفُوَ عَلَى سَطْحِ الْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ مُتَّجِهَةً إِلَى أَسْفَلِ مَجْرَاهُ، فَذَلِكَ أَيْسَرُ.

وَعِنْدَمَا اتَّجَهَ سُكَّانُ الْبِرْكَةِ الْبَاسِمَةِ الصِّغَارُ — وَهُمْ أَوَّلُ مَنِ اكْتَشَفَ أَنَّ الْقُنْدُسَ بادي قَدْ أَتَى إِلَى الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ — إِلَى أَعْلَى مَجْرَى الْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ لِيَنْظُرُوا مَاذَا يَفْعَلُ، وَأَخْبَرُوا النَّسَمَاتِ الرَّقِيقَةَ الْمَرِحَةَ بِوِجْهَتِهِمْ، اضْطَرَبَتِ النَّسَمَاتُ أَيَّمَا اضْطِرَابٍ، وَلَمْ تَفْهَمْ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَ غَرِيبٌ لِلْعَيْشِ فِي الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ دُونَ عِلْمِهَا. فَقَدْ نَسِيَتْ أَنَّهَا نَادِرًا جَدًّا مَا تَجُولُ فِي جَوْفِ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ. وَبِالطَّبْعِ انْطَلَقَتْ عَلَى الْفَوْرِ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ لِتُخْبِرَ بَقِيَّةَ سُكَّانِ الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ الصِّغَارِ وَالْمَنَاطِقِ الْمُحِيطَةِ بِهَا، كُلَّهُمْ إِلَّا الْقَيُّوطَ الْعَجُوزَ. فَلِسَبَبٍ مَا رَأَتْ أَنَّهُ مِنَ الْأَفْضَلِ أَلَّا تُخْبِرَهُ؛ فَقَدْ كَانَتْ تَنْتَابُهَا بَعْضُ الشُّكُوكِ إِزَاءَ الْقَيُّوطِ الْعَجُوزِ؛ فَقَدْ كَانَ كَبِيرًا وَقَوِيًّا جِدًّا وَشَدِيدَ الْمَكْرِ وَالذَّكَاءِ، حَتَّى إِنَّ جَمِيعَ جِيرَانِهِ كَانُوا يَخَافُونَهُ. رُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ مَا جَالَ بِبَالِ النَّسَمَاتِ الرَّقِيقَةِ الْمَرِحَةِ، وَعَرَفَتْ أَنْ لَا أَحَدَ سَيَجْرُؤُ عَلَى الذَّهَابِ لِزِيَارَةِ الْغَرِيبِ إِنْ عَرَفَ أَنَّ الْقَيُّوطَ الْعَجُوزَ ذَاهِبٌ بِدَوْرِهِ. وَعَلَى أَيِّ حَالٍ، فَقَدِ اكْتَفَتْ بِقَضَاءِ ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنَ الْيَوْمِ مَعَ الْقَيُّوطِ الْعَجُوزِ، ثُمَّ أَسْرَعَتْ لِتُخْبِرَ الْبَاقِينَ جَمِيعًا، وَكَانَ آخِرُ مَنِ الْتَقَتْهُ هُوَ طَائِرَ السِّنْدِيَانِ سامي.

إِنَّ أَكْثَرَ مَا يُزْعِجُ سامي فِكْرَةُ أَنْ يَجْرِيَ شَيْءٌ دُونَ أَنْ يَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يَعْلَمُ بِهِ. فَهُوَ كَمَا تَعْلَمُونَ شَدِيدُ الْوَلَعِ بِالتَّدَخُّلِ فِي شُئُونِ الْآخَرِينَ، وَأَكْثَرُ مَا يُحِبُّ أَنْ يَتَفَاخَرَ بِأَنْ لَا شَيْءَ يَجْرِي فِي الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ أَوْ عَلَى الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ دُونَ عِلْمِهِ. فَالْآنَ أَحَسَّ جُرْحًا فِي كِبْرِيَائِهِ، وَكَانَ غَاضِبًا أَشَدَّ الْغَضَبِ بَيْنَمَا تَبِعَ النَّسَمَاتِ الرَّقِيقَةَ الْمَرِحَةَ إِلَى جَوْفِ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ؛ حَيْثُ قَالُوا إِنَّ الْقُنْدُسَ بادي كَانَ يَعْمَلُ. لَمْ يُصَدِّقْ حَرْفًا مِمَّا سَمِعَ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَتَأَكَّدَ بِنَفْسِهِ.

الفصل الرابع

طَائِرُ السِّنْدِيَانِ سامي يُعَبِّرُ عَنْ رَأْيِهِ

عِنْدَمَا بَلَغَ طَائِرُ السِّنْدِيَانِ سامي الْمَوْضِعَ الَّذِي انْهَمَكَ فِيهِ الْقُنْدُسُ بادي فِي الْعَمَلِ فِي جَوْفِ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ، لَمْ يَخْتَبِئْ كَمَا فَعَلَتِ الْحَيَوَانَاتُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي تَسِيرُ عَلَى أَرْبَعِ أَرْجُلٍ. فَطَبْعًا لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ مَا يَدْفَعُهُ إِلَى الِاخْتِبَاءِ؛ لِأَنَّهُ شَعَرَ بِأَمَانٍ تَامٍّ. وَكَانَ بادي قَدِ انْتَهَى لِتَوِّهِ مِنْ تَقْطِيعِ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ، وَسَقَطَتْ مُحْدِثَةً صَوْتًا مُدَوِّيًا لَدَى مَجِيءِ سامي مُتَعَجِّلًا. فَعَقَدَتِ الدَّهْشَةُ لِسَانَ سامي لِوَهْلَةٍ؛ فَهُوَ لَمْ يَتَخَيَّلْ أَنَّ أَحَدًا، عَدَا الْمُزَارِعِ براون أَوِ ابْنِهِ، يُمْكِنُهُ تَقْطِيعُ مِثْلِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ الْكَبِيرَةِ، فَخَطَفَ الْمَشْهَدُ أَنْفَاسَهُ، وَلَكِنَّهُ سُرْعَانَ مَا اسْتَرَدَّهَا. فَقَدْ كَانَ يَشْتَاطُ غَضَبًا عَلَى أَيِّ حَالٍ مِنْ فِكْرَةِ كَوْنِهِ آخِرَ مَنْ يَعْلَمُ بِمَجِيءِ بادي مِنَ الشَّمَالِ لِيَتَّخِذَ دَارًا فِي الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ، وَهَا قَدْ أَتَتْهُ الْفُرْصَةُ لِكَيْ يُعَبِّرَ عَنْ رَأْيِهِ.

فَصَاحَ بِصَوْتٍ أَجَشَّ قَائِلًا: «لِصٌّ! لِصٌّ! لِصٌّ!»

فَنَظَرَ الْقُنْدُسُ بادي إِلَى أَعْلَى بِعَيْنَيْنِ بَاسِمَتَيْنِ، وَقَالَ: «مَرْحَبًا يَا سَيِّدِي طَائِرَ السِّنْدِيَانِ! أَرَى أَنَّكَ لَسْتَ أَحْسَنَ سُلُوكًا مِنَ ابْنِ عَمِّكَ الَّذِي يَعِيشُ فِي الْغَابَةِ الَّتِي أَتَيْتُ مِنْهَا.»

فَصَاحَ سامي وَهُوَ يَتَوَاثَبُ مِنْ شِدَّةِ غَضَبِهِ: «لِصٌّ! لِصٌّ! لِصٌّ!»

فَرَدَّ عَلَيْهِ بادي قَائِلًا: «أَظُنُّكَ تَتَحَدَّثُ عَنْ نَفْسِكَ؛ فَلَمْ يَسْبِقْ لِي قَطُّ أَنْ رَأَيْتُ طَائِرَ سِنْدِيَانٍ نَزِيهًا، وَلَا أَظُنُّنِي سَأَرَى وَاحِدًا أَبَدًا.»

فَضَحِكَ الْأَرْنَبُ بيتر، الَّذِي كَانَ قَدْ نَسِيَ تَقْرِيبًا أَنَّهُ مُخْتَبِئٌ: «هَا هَا هَا!»

فَقَالَ بادي، وَكَأَنَّ مَكَانَ بيتر لَمْ يَكُنْ مَعْلُومًا لَهُ طَوَالَ الْوَقْتِ: «آهٍ، كَيْفَ حَالُكَ يَا سَيِّدِي الْأَرْنَبَ؟ سَرَّتْنِي كَثِيرًا زِيَارَتُكَ لِيَ الْيَوْمَ. يَبْدُو لِي أَنَّ السَّيِّدَ سنديان مُتَعَكِّرُ الْمِزَاجِ الْيَوْمَ.»

فَضَحِكَ بيتر مُجَدَّدًا وَقَالَ: «ذَلِكَ حَالُهُ دَائِمًا. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُتَعَكِّرَ الْمِزَاجِ، فَلَنْ يَكُونَ مَسْرُورًا. رُبَّمَا لَنْ تَظُنَّ ذَلِكَ عِنْدَمَا تَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ مَسْرُورٌ الْآنَ. هُوَ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ، لَكِنَّهُ مَسْرُورٌ فِعْلًا؛ فَدَائِمًا مَا يَسُرُّهُ الْإِفْصَاحُ عَنْ تَعَكُّرِ مِزَاجِهِ.»

فَنَظَرَ طَائِرُ السِّنْدِيَانِ سامي شَزَرًا إِلَى بيتر، ثُمَّ نَظَرَ شَزَرًا إِلَى بادي. وَكَانَ يَصِيحُ طَوَالَ الْوَقْتِ قَائِلًا: «لِصٌّ!» بِمِلْءِ فِيهِ. أَمَّا بادي فَوَاصَلَ عَمَلَهُ دُونَ أَنْ يُعِيرَ سامي اهْتِمَامًا، وَهُوَ مَا أَغْضَبَ سامي أَشَدَّ الْغَضَبِ؛ فَرَاحَ يَقْتَرِبُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ حَتَّى صَارَ فِي النِّهَايَةِ عَلَى الشَّجَرَةِ ذَاتِهَا الَّتِي كَانَ بادي يُقَطِّعُهَا؛ فَبَرِقَتْ عَيْنَا بادي.

ثُمَّ هَتَفَ فَجْأَةً: «لَسْتُ بِلِصٍّ!»

صَاحَ سامي قَائِلًا: «بَلْ أَنْتَ لِصٌّ! أَنْتَ لِصٌّ! إِنَّكَ تَسْرِقُ أَشْجَارَنَا!»

فَرَدَّ عَلَيْهِ بادي قَائِلًا: «تِلْكَ الْأَشْجَارُ لَيْسَتْ مِلْكًا لَكُمْ. إِنَّهَا مِلْكُ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ، وَالْغَابَةُ الْخَضْرَاءُ مِلْكُ كُلِّ مَنْ يُحِبُّونَهَا، وَكُلُّنَا نَتَمَتَّعُ بِكَامِلِ الْحَقِّ فِي أَخْذِ مَا يَلْزَمُنَا مِنْهَا. أَنَا بِحَاجَةٍ إِلَى تِلْكَ الْأَشْجَارِ، وَيَحِقُّ لِي أَنْ آخُذَهَا تَمَامًا كَمَا يَحِقُّ لَكَ أَنْ تَأْخُذَ ثَمَرَاتِ الْجَوْزِ السَّمِينَةَ الَّتِي تَتَسَاقَطُ مِنْ أَشْجَارِ الْبَلُّوطِ فِي الْخَرِيفِ.»

فَصَاحَ سامي: «لَيْسَ صَحِيحًا.» كَمَا تَعْلَمُونَ، لَا يَسْتَطِيعُ سامي أَنْ يَتَحَدَّثَ دُونَ صِيَاحٍ، وَكُلَّمَا زَادَ حَمَاسُهُ عَلَا صِيَاحُهُ. فَأَرْدَفَ صَائِحًا: «لَيْسَ صَحِيحًا! فَالْجَوْزُ طَعَامٌ. الْغَرَضُ مِنْهُ هُوَ أَكْلُهُ. وَيَجِبُ أَنْ آكُلَهُ كَيْ أَعِيشَ. وَلَكِنَّكَ تُقَطِّعُ أَشْجَارًا كَامِلَةً. إِنَّكَ تُخَرِّبُ الْغَابَةَ الْخَضْرَاءَ، وَلَا تَنْتَمِي إِلَى هُنَا، وَلَمْ يَدْعُكَ أَحَدٌ، وَلَا أَحَدَ يُرِيدُكَ. أَنْتَ لِصٌّ!»

حِينَهَا تَكَلَّمَ فَأْرُ الْمِسْكِ جيري، وَهُوَ كَمَا تَعْلَمُونَ ابْنُ عَمِّ الْقُنْدُسِ بادي.

فَقَالَ مُشِيرًا إِلَى طَائِرِ السِّنْدِيَانِ سامي: «لَا تُبَالِ بِهِ. لَا أَحَدَ يُبَالِي بِهِ؛ فَهُوَ أَكْبَرُ مُشَاغِبٍ، سَوَاءٌ فِي الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ أَوِ الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ. وَقَدْ يَسْرِقُ أَقْرِبَاءَهُ. لَا تُبَالِ بِمَا يَقُولُ يَا ابْنَ الْعَمِّ بادي.»

وَطَوَالَ ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَ بادي مُسْتَمِرًّا فِي عَمَلِهِ كَأَنَّهُ وَاقِفٌ بِمُفْرَدِهِ. وَمَا إِنْ أَنْهَى جيري حَدِيثَهُ حَتَّى ضَرَبَ بادي الْأَرْضَ بِذَيْلِهِ، وَهِيَ طَرِيقَةُ تَحْذِيرِهِ الْآخَرِينَ، ثُمَّ جَرَى

مُبْتَعِدًا فَجْأَةً بِأَقْصَى سُرْعَةٍ. فَعَقَدَتِ الدَّهْشَةُ لِسَانَ سامي لِوَهْلَةٍ، وَلَمْ يَلْحَظْ أَيَّ شَيْءٍ غَرِيبٍ فِي الشَّجَرَةِ. وَفَجْأَةً شَعَرَ أَنَّهُ يَسْقُطُ؛ فَأَطْلَقَ صَرْخَةً مَذْعُورَةً، ثُمَّ بَسَطَ جَنَاحَيْهِ لِيَطِيرَ، وَلَكِنَّ فُرُوعَ الشَّجَرَةِ سَحَبَتْهُ مَعَهَا إِلَى أَسْفَلَ لِيَسْقُطَ فِي الْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ مُبَاشَرَةً.

فَبَيْنَمَا كَانَ سامي يُعَبِّرُ عَنْ رَأْيِهِ، قَطَعَ بادي الشَّجَرَةَ ذَاتَهَا الَّتِي كَانَ يَجْلِسُ عَلَيْهَا.

لَمْ يُصَبْ سامي بِسُوءٍ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مُبْتَلًّا مُلَطَّخًا بِالطِّينِ وَفَزِعًا؛ فَبَدَا أَتْعَسَ طَائِرِ سِنْدِيَانٍ فِي الْوُجُودِ. وَكَانَ مَنْظَرُهُ أَقْوَى مِنْ قُدْرَةِ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ الصَّغِيرَةِ الْمُخْتَبِئَةِ عَلَى التَّحَمُّلِ. فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا مَنْعَ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الضَّحِكِ. ثُمَّ خَرَجُوا جَمِيعًا لِتَحِيَّةِ الْقُنْدُسِ بادي.

الفصل الخامس

بادي يَفِي بِوَعْدِهِ

وَاصَلَ الْقُنْدُسُ بادي عَمَلَهُ كَأَنَّمَا لَمْ يَأْتِهِ زُوَّارٌ؛ فَمُهِمَّةُ بِنَاءِ سَدٍّ هِيَ مُهِمَّةٌ كَبِيرَةٌ. وَعِنْدَمَا يَنْتَهِي مِنْ ذَلِكَ سَيَكُونُ عَلَيْهِ أَنْ يَبْنِيَ بَيْتًا وَأَنْ يُقَطِّعَ إِمْدَادَاتِ الشِّتَاءِ مِنَ الْغِذَاءِ وَيُخَزِّنَهَا. فَتَأَكَّدُوا أَنَّ الْقُنْدُسَ بادي لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ وَقْتًا لِلَّغْوِ الْفَارِغِ! لِذَا وَاصَلَ بِنَاءَ السَّدِّ. لَمْ يَكُنْ يُشْبِهُ السَّدَّ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ فِي الْبِدَايَةِ، وَشَمَخَ بَعْضُ زُوَّارِ بادي بِأُنُوفِهِمْ فِي اسْتِهْزَاءٍ عِنْدَمَا رَأَوْهُ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى؛ فَقَدْ سَمِعُوا قِصَصًا عَنْ مَدَى كَفَاءَةِ بادي فِي بِنَاءِ السُّدُودِ، وَتَوَقَّعُوا أَنْ يَرَوْا مَا يُشْبِهُ مُنْحَدَرًا مُمَهَّدًا مَكْسُوًّا بِالْحَشَائِشِ، كَذَاكَ الَّذِي صَنَعَهُ الْمُزَارِعُ براون لِيَحُولَ دُونَ أَنْ يَفِيضَ النَّهْرُ الْكَبِيرُ عَلَى أَرَاضِيهِ الْمُنْخَفِضَةِ. فَكَانَ مَا رَأَوْهُ فِي الْمُقَابِلِ هُوَ كَوْمَةً هَائِلَةً مِنْ جُذُوعِ شَجَرٍ وَعِصِيٍّ لَا تُشْبِهُ السَّدَّ بِأَيَّةِ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

فَهَتَفَ الْمِنْكُ بيلي قَائِلًا: «هَاهْ! أَظُنُّ أَنَّهُ لَا دَاعِيَ لِأَنْ نَقْلَقَ بِشَأْنِ الْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ وَالْبِرْكَةِ الْبَاسِمَةِ إِذَا كَانَ ذَلِكَ أَفْضَلَ مَا يُمْكِنُ لِبادي أَنْ يَأْتِيَ بِهِ. فَمِيَاهُ الْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ سَتَنْفُذُ عَبْرَهُ عَلَى الْفَوْرِ.»

وَقَدْ سَمِعَهُ بادي طَبْعًا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا، بَلِ اسْتَمَرَّ فِي عَمَلِهِ.

وَوَاصَلَ الْمِنْكُ بيلي حَدِيثَهُ قَائِلًا: «انْظُرُوا كَيْفَ رَصَّ تِلْكَ الْجُذُوعَ! يَبْدُو لِي أَنَّ أَيَّ أَحَدٍ لَدَيْهِ دِرَايَةٌ سَيَشْرَعُ فِي رَصِّهَا بِعَرْضِ الْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ عِوَضًا عَنْ رَصِّهَا بِالطُّولِ. يُمْكِنُنِي بِنَاءُ سَدٍّ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ.»

فَلَمْ يَقُلْ بادي شَيْئًا، وَوَاصَلَ عَمَلَهُ.

فَأَرْدَفَ بيلي مُتَبَاهِيًا: «نَعَمْ، يُمْكِنُنِي بِنَاءُ سَدٍّ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. لَنْ تَتَمَكَّنَ كَوْمَةُ الْجُذُوعِ تِلْكَ مِنْ إِيقَافِ الْمِيَاهِ أَبَدًا.»

فَسَأَلَهُ فَأْرُ الْمِسْكِ جيري: «هَلْ تَشَوَّشَ بَصَرُكَ أَيُّهَا الْمِنْكُ بيلي؟»

فَأَجَابَهُ بيلي حَانِقًا: «بِالطَّبْعِ لَا! لِمَاذَا؟»

فَرَدَّ عَلَيْهِ جيري الَّذِي كَانَ يَتَفَحَّصُ السَّدَّ بِاهْتِمَامٍ كَبِيرٍ قَائِلًا: «لَا شَيْءَ، يَبْدُو لِي فَقَطْ أَنَّكَ لَمْ تُلَاحِظْ أَنَّ الْجَدْوَلَ الضَّاحِكَ فَاضَ عَلَى ضَفَّتَيْهِ بِالْفِعْلِ فَوْقَ سَدِّ بادي.»

فَبَدَتْ بَعْضُ الْحَمَاقَةِ عَلَى بيلي؛ فَقَدْ تَكَوَّنَتْ بِرْكَةٌ صَغِيرَةٌ فَوْقَ السَّدِّ مُبَاشَرَةً بِالْفِعْلِ، وَكَانَتْ آخِذَةً فِي الِاتِّسَاعِ.

وَلَكِنَّ بادي ظَلَّ مُسْتَمِرًّا فِي عَمَلِهِ، دُونَ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا؛ فَقَدْ رَاحَ يَحْفِرُ أَمَامَ السَّدِّ آنَئِذٍ، وَأَخَذَ يَحْشُرُ مَا أَتَى بِهِ مِنْ طِينٍ وَحَشَائِشَ بَيْنَ نِهَايَاتِ الْجُذُوعِ وَيُسَوِّيهَا بِيَدَيْهِ. وَفَعَلَ ذَلِكَ عَلَى امْتِدَادِ وَاجِهَةِ السَّدِّ وَأَعْلَاهُ أَيْضًا، وَحَيْثُمَا اسْتَدْعَتِ الْحَاجَةُ. وَمِنَ الْأَكِيدِ أَنَّ ذَلِكَ زَادَ صُعُوبَةَ مُرُورِ الْمَاءِ، وَأَخَذَتِ الْبِرْكَةُ الصَّغِيرَةُ أَعْلَى السَّدِّ تَتَّسِعُ بِمُعَدَّلٍ أَسْرَعَ. وَبَعْدَ فَتْرَةٍ، لَيْسَتْ بِطَوِيلَةٍ، بَلَغَتْ قِمَّةَ السَّدِّ تَقْرِيبًا، الَّتِي كَانَتْ بَالِغَةَ الِانْخِفَاضِ فِي الْبِدَايَةِ. ثُمَّ جَلَبَ بادي الْمَزِيدَ مِنَ الْعِصِيِّ. وَقَدْ أَصْبَحَ ذَلِكَ أَيْسَرَ الْآنَ؛ إِذْ صَارَ بِإِمْكَانِهِ الدَّفْعُ بِهَا مِنْ حَيْثُ كَانَ يُقَطِّعُهَا لِتَطْفُوَ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ. فَكَانَ يَضَعُهَا فِي مَكَانِهَا عَلَى قِمَّةِ السَّدِّ، ثُمَّ يُهْرَعُ لِجَلْبِ الْمَزِيدِ. وَحَيْثُمَا اسْتَدْعَتِ الْحَاجَةُ، كَانَ يَضَعُ الطِّينَ. بَلْ إِنَّهُ دَحْرَجَ بَعْضَ الْحَصَى لِكَيْ يُسَاعِدَ عَلَى تَثْبِيتِ تِلْكَ الْكُتْلَةِ.

فَرَاحَ السَّدُّ يَعْلُو وَيَعْلُو، كَمَا رَاحَتِ الْبِرْكَةُ أَعْلَاهُ تَتَّسِعُ. لَا شَكَّ أَنَّ بِنَاءَ مِثْلِ ذَلِكَ السَّدِّ الْكَبِيرِ اسْتَغْرَقَ أَيَّامًا طِوَالًا، وَالْكَثِيرَ مِنَ الْعَمَلِ الشَّاقِّ! فَكَانَ سُكَّانُ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ وَالْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ الصِّغَارُ يَزُورُونَهُ كُلَّ صَبَاحٍ، وَكُلَّ صَبَاحٍ كَانُوا يَجِدُونَ السَّدَّ قَدْ نَمَا كَثِيرًا أَثْنَاءَ اللَّيْلِ؛ فَقَدْ كَانَ بادي يُفَضِّلُ الْعَمَلَ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ.

وَآنَئِذٍ، كَانَ الْجَدْوَلُ الضَّاحِكُ قَدْ تَوَقَّفَ عَنِ الضَّحِكِ، وَفِي الْبِرْكَةِ الْبَاسِمَةِ كَانَ الْمَاءُ يَكْفِي بِالْكَادِ لِبَثِّ الطُّمَأْنِينَةِ فِي أَسْمَاكِ الْمِنَّوَةِ. وَكَفَّ الْمِنْكُ بيلي عَنِ السُّخْرِيَةِ مِنَ السَّدِّ، وَانْتَابَ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَعِيشُ فِي الْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ وَالْبِرْكَةِ الْبَاسِمَةِ قَلَقٌ بَالِغٌ.

الْحَقُّ أَنَّ بادي كَانَ قَدْ نَبَّهَهُمْ إِلَى مَا يَنْوِي فِعْلَهُ، وَوَعَدَهُمْ أَنَّهُ حِينَمَا تَصِلُ بِرْكَتُهُ إِلَى الْحَجْمِ الْكَافِي، سَتَعُودُ الْمِيَاهُ تَجْرِي فِي الْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ. وَقَدْ حَاوَلُوا تَصْدِيقَهُ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا مَنْعَ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الشُّعُورِ بِقَدْرٍ مِنَ الْخَوْفِ مِنْ أَلَّا يَكُونَ صَادِقًا تَمَامًا؛ فَهُمْ

لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهُ، فَقَدْ كَانَ غَرِيبًا عَنْهُمْ. وَكَانَ فَأْرُ الْمِسْكِ جيري هُوَ الْوَحِيدَ الَّذِي يَثِقُ تَمَامَ الثِّقَةِ فِي أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَيَكُونُ عَلَى مَا يُرَامُ. رُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ لِأَنَّ بادي ابْنُ عَمِّهِ، وَلَمْ يَتَمَالَكْ جيري نَفْسَهُ مِنَ التَّفَاخُرِ بِقَرِيبٍ ضَخْمٍ وَذَكِيٍّ مِثْلِ بادي.

وَيَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ أَخَذَ السَّدُّ يَعْلُو، وَالْبِرْكَةُ تَتَّسِعُ. وَذَاتَ صَبَاحٍ سَمِعَ الْجَدُّ ضفدع، عِنْدَمَا كَانَ يَقِفُ وَسْطَ مَا كَانَ فِي السَّابِقِ الْبِرْكَةَ الْبَاسِمَةَ، صَوْتًا جَعَلَ قَلْبَهُ يَقْفِزُ مِنَ الْفَرْحَةِ. كَانَ صَوْتَ خَرِيرٍ رَاحَ يَتَعَالَى، حَتَّى صَارَ ضِحْكَةَ الْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ الْمَرِحَةَ. وَحِينَئِذٍ عَرَفَ أَنَّ بادي قَدْ وَفَّى بِوَعْدِهِ وَأَنَّ الْمِيَاهَ سَتَغْمُرُ الْبِرْكَةَ الْبَاسِمَةَ مِنْ جَدِيدٍ.

فُضُولُ ابْنِ الْمُزَارِعِ براون

فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ عَلَى رُؤْيَةِ الْقُنْدُسِ بادي أَنَّ الْبِرْكَةَ صَارَتْ كَبِيرَةً بِمَا يَكْفِي؛ وَمِنْ ثَمَّ سَمَاحِهِ لِلْمِيَاهِ بِالتَّدَفُّقِ فِي الْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ مَرَّةً أُخْرَى؛ صَادَفَ أَنَّ ابْنَ الْمُزَارِعِ براون قَرَّرَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْبِرْكَةِ الْبَاسِمَةِ لِيَصْطَادَ. وَكَالْمُعْتَادِ كَانَ يُصَفِّرُ أَثْنَاءَ نُزُولِهِ مِنْ عَلَى الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ. فَلِسَبَبٍ مَا دَائِمًا مَا تَنْتَابُهُ الرَّغْبَةُ فِي الصَّفِيرِ عِنْدَمَا يَذْهَبُ لِلصَّيْدِ. سَمِعَهُ الْجَدُّ ضفدع، فَغَاصَ فِي الْمِيَاهِ الْقَلِيلَةِ الْمُتَبَقِّيَةِ فِي الْبِرْكَةِ الْبَاسِمَةِ وَحَرَّكَ الطِّينَ فِي قَاعِ الْبِرْكَةِ حَتَّى لَا يَرَاهُ ابْنُ الْمُزَارِعِ براون.

أَخَذَ صَوْتُ الصَّفِيرِ يَدْنُو أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ، ثُمَّ انْقَطَعَ فَجْأَةً؛ فَقَدْ كَانَتِ الْبِرْكَةُ الْبَاسِمَةُ قَدْ صَارَتْ فِي مَجَالِ رُؤْيَةِ ابْنِ الْمُزَارِعِ براون، أَوْ عَلَى وَجْهِ الدِّقَّةِ، مَا كَانَ يَوْمًا بِرْكَةً بَاسِمَةً. أَمَّا الْآنَ فَلَمْ تَعُدْ هُنَاكَ بِرْكَةٌ بَاسِمَةٌ، فَقَدْ كَانَ الْقَدْرُ الضَّئِيلُ الْمُتَبَقِّي مِنَ الْبِرْكَةِ أَقَلَّ وَأَضْعَفَ مِنْ أَنْ يَبْتَسِمَ. وَكَانَتْ ثَمَّةَ أَكْوَامٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الطِّينِ، تَنْمُو مِنْهَا أَعْشَابُ الْبِرَكِ، بَيْنَمَا كَانَتْ أَوْرَاقُ الزَّنْبَقِ الْأَبْيَضِ مُلْقَاةً بَائِسَةً بِالْقُرْبِ مِنْ بِرْكَةِ الْمَاءِ الْهَزِيلَةِ الْمُتَبَقِّيَةِ. وَحَيْثُ انْحَدَرَتِ الضِّفَافُ وَعَلَتْ، كَانَتِ الثُّقُوبُ الَّتِي حَفِظَهَا فَأْرُ الْمِسْكِ جيري وَالْمِنْكُ بيلي عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ مَكْشُوفَةً لِلنَّاظِرِينَ. وَعَلَى أَحَدِ الْجَوَانِبِ كَانَ بَيْتُ فَأْرِ الْمِسْكِ جيري، قَدْ بَرَزَ بِأَكْمَلِهِ مِنْ سَطْحِ الْمَاءِ.

ظَنَّ ابْنُ الْمُزَارِعِ براون، بِصُورَةٍ أَوْ بِأُخْرَى، أَنَّهُ يَحْلُمُ بِالتَّأْكِيدِ؛ فَهُوَ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ رَأَى مِثْلَ ذَلِكَ الْمَنْظَرِ قَطُّ، وَلَا حَتَّى لَدَى أَشَدِّ الْأَجْوَاءِ جَفَافًا فِي أَشَدِّ فَتَرَاتِ الصَّيْفِ حَرَارَةً. فَجَالَ بِبَصَرِهِ فِي أَرْجَاءِ الْمَكَانِ. وَبَدَتْ لَهُ الْغَابَةُ الْخَضْرَاءُ كَسَابِقِ عَهْدِهِ بِهَا،

وَكَذَلِكَ الْمُرُوجُ الْخَضْرَاءُ، لَكِنَّ الْجَدْوَلَ الضَّاحِكَ! مَاذَا أَصَابَ الْجَدْوَلَ الضَّاحِكَ؟ صَوْتُ الْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ لَمْ يَبْلُغْ مَسَامِعَهُ، وَهُوَ أَمْرٌ غَيْرُ مُعْتَادٍ بِالْمَرَّةِ كَمَا تَعْلَمُونَ. فَأَلْقَى صِنَّارَتَهُ وَرَكَضَ إِلَى الْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ. فَلَمْ يَجِدْ جَدْوَلًا. كَلَّا، لَمْ يَجِدْ جَدْوَلًا؛ وَإِنَّمَا بَعْضَ بِرَكِ الْمَاءِ تَسِيلُ فِيمَا بَيْنَهَا قَطَرَاتٌ شَحِيحَةٌ لَا أَكْثَرَ. وَالْأَحْجَارُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي طَالَمَا رَأَى الْمَاءَ يَجْرِي مِنْ فَوْقِهَا صَانِعًا شَلَّالَاتٍ بَيْضَاءَ صَغِيرَةً بَدِيعَةً صَارَتْ جَافَّةً جَدْبَاءَ. وَفِي الْبِرَكِ الْهَزِيلَةِ كَانَتْ أَسْمَاكُ الْمِنْوَةِ الْمَذْعُورَةُ تَتَقَافَزُ هُنَا وَهُنَاكَ.

حَكَّ ابْنُ الْمُزَارِعِ براون رَأْسَهُ فِي حَيْرَةٍ، ثُمَّ قَالَ: «لَا أَفْهَمُ، لَا أَفْهَمُ مُطْلَقًا. لَا بُدَّ أَنَّ خَطْبًا مَا أَصَابَ الْيَنَابِيعَ الَّتِي تَمُدُّ الْجَدْوَلَ الضَّاحِكَ بِالْمِيَاهِ. لَا بُدَّ أَنَّهَا نَضَبَتْ. نَعَمْ، لَا بُدَّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ مَا حَدَثَ. وَلَكِنِّي لَمْ أَسْمَعْ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْأَمْرِ مِنْ قَبْلُ، وَحَقًّا لَا أَفْهَمُ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ.» ثُمَّ تَطَلَّعَ إِلَى الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ كَأَنَّ بِإِمْكَانِهِ رُؤْيَةَ تِلْكَ الْيَنَابِيعِ. طَبْعًا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَا ظَنَّهُ بِأَيِّ حَالٍ، وَإِنَّمَا كَانَ يُقَلِّبُ الْأَمْرَ فِي رَأْسِهِ فَحَسْبُ. ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ عَالٍ: «أَعْرِفُ مَا سَوْفَ أَفْعَلُ! سَأَذْهَبُ إِلَى تِلْكَ الْيَنَابِيعِ عَصْرَ الْيَوْمِ وَأَعْرِفُ مَا الْأَمْرُ. وَهِيَ بَعِيدَةٌ عَلَى الْجَانِبِ الْمُقَابِلِ مِنَ الْغَابَةِ تَقْرِيبًا، وَأَسْهَلُ طَرِيقٍ لِبُلُوغِهَا سَيَكُونُ بِالِانْطِلَاقِ مِنَ الْمَنْزِلِ وَعُبُورِ الْمَرْعَى الْقَدِيمِ وُصُولًا إِلَى طَرَفِ الْجَبَلِ خَلْفَ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ. فَإِذَا حَاوَلْتُ السَّيْرَ بِمُحَاذَاةِ الْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ الْآنَ، فَسَيَسْتَغْرِقُ وُصُولِي وَقْتًا طَوِيلًا؛ لِأَنَّهُ كَثِيرُ الْمُنْعَطَفَاتِ وَالْمُنْحَنَيَاتِ. هَذَا إِلَى جَانِبِ أَنَّهُ أَمْرٌ شَاقٌّ لِلْغَايَةِ.»

وَبَعْدَهَا رَجَعَ ابْنُ الْمُزَارِعِ براون وَالْتَقَطَ صِنَّارَتَهُ. ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى الْمَنْزِلِ عَبْرَ الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ، وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ لَمْ يَكُنْ يُصَفِّرُ؛ فَقَدْ كَانَ مَشْغُولَ الْبَالِ. بَلْ إِنَّهُ كَانَ مَشْغُولَ الْبَالِ إِلَى حَدِّ أَنَّهُ لَمْ يَرَ الظَّرِبَانَ جيمي وَكَادَ يَدُوسُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَفَزَ بِفَزَعٍ وَجَرَى؛ لِأَنَّهُ دُونَ بُنْدُقِيَّتِهِ كَانَ يَخْشَى الظَّرِبَانَ جيمي تَمَامًا كَمَا يَخْشَاهُ جيمي عِنْدَمَا تَكُونُ الْبُنْدُقِيَّةُ فِي حَوْزَتِهِ.

فَابْتَسَمَ جيمي ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً وَتَابَعَ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ. فَطَالَمَا أَمْتَعَ جيمي أَنْ يَرَى النَّاسَ تَهْرُبُ مِنْهُ، لَا سِيَّمَا الْأَشْخَاصُ الَّذِينَ يَفُوقُونَهُ حَجْمًا بِكَثِيرٍ؛ فَقَدْ كَانُوا يَبْدُونَ شَدِيدِي السَّخَافَةِ.

وَبَيْنَمَا تَدَحْرَجَ عَلَى صَخْرَةٍ بَحْثًا عَنْ خَنَافِسَ سَمِينَةٍ، غَمْغَمَ قَائِلًا: «كُنْتُ أَظُنُّهُمْ سَيَكُونُونَ قَدْ عَرَفُوا الْآنَ أَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يُضَايِقُونِي، فَلَنْ أُضَايِقَهُمْ. يَبْدُو أَنَّ النَّاسَ لَا تَفْهَمُنِي أَبَدًا.»

الفصل السابع

مُفَاجَأَةٌ جَدِيدَةٌ لِابْنِ الْمُزَارِعِ براون

عَبَرَ ابْنُ الْمُزَارِعِ براون الْمَرْعَى الْقَدِيمَ وُصُولًا إِلَى سَفْحِ الْجَبَلِ خَلْفَ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ، وَأَمَامَهُ خَفَّ كَلْبُ الصَّيْدِ باوزر الْخُطَى، مُتَشَمِّمًا هُنَا وَهُنَاكَ بَحْثًا عَنْ آثَارِ الثَّعْلَبِ ريدي أَوِ الْجَدَّةِ ثعلبة. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْهُمَا بِالطَّبْعِ؛ لِأَنَّ أَيًّا مِنْهُمَا لَمْ يَذْهَبْ إِلَى الْمَرْعَى الْقَدِيمِ مُنْذُ زَمَنٍ. وَلَكِنَّهُ وَجَدَ الْأَرْنَبَ الرَّمَادِيَّ الْعَجُوزَ ثامبر، الَّذِي أَوْقَعَ الْأَرْنَبَ بيتر فِي مَتَاعِبَ جَمَّةٍ ذَاتَ مَرَّةٍ، فَأَفْزَعَهُ بِشِدَّةٍ حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَنْظُرْ أَمَامَهُ وَكَادَ يَصْطَدِمُ بِابْنِ الْمُزَارِعِ براون مُبَاشَرَةً.

فَهَتَفَ ابْنُ الْمُزَارِعِ براون: «مَرْحَبًا يَا ذَا الذَّيْلِ الْقُطْنِيِّ الْعَجُوزِ!» وَهُوَ مَا زَادَ الْعَجُوزَ فَزَعًا حَتَّى إِنَّهُ مَرَقَ أَمَامَ بَيْتِهِ الْمَصْنُوعِ مِنَ الْكُرُومِ الشَّائِكَةِ دُونَ أَنْ يَرَاهُ.

وَاصَلَ ابْنُ الْمُزَارِعِ براون طَرِيقَهُ، ضَاحِكًا مِمَّا أَصَابَ ثامبر الْعَجُوزَ مِنْ فَزَعٍ. وَحِينَئِذٍ بَلَغَ الْيَنَابِيعَ الَّتِي تَأْتِي مِنْهَا الْمِيَاهُ حَيْثُ يَبْدَأُ الْجَدْوَلُ الضَّاحِكُ. كَانَ يَتَوَقَّعُ أَنْ يَجِدَهَا جَافَّةً؛ إِذْ كَانَتِ الْبِرْكَةُ الْبَاسِمَةُ بِالْأَسْفَلِ عِنْدَ الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ شِبْهَ جَافَّةٍ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْجَدْوَلُ الضَّاحِكُ، فَافْتَرَضَ أَنَّ السَّبَبَ الْأَكِيدَ وَرَاءَ ذَلِكَ هُوَ أَنَّ الْيَنَابِيعَ الَّتِي يَبْدَأُ مِنْهَا الْجَدْوَلُ الضَّاحِكُ لَمْ تَعُدْ تَتَدَفَّقُ.

وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَتَدَفَّقُ! فَقَدِ انْبَثَقَتِ الْمِيَاهُ الْبَارِدَةُ الصَّافِيَةُ مِنَ الْأَرْضِ مُحْدِثَةً خَرِيرًا كَعَادَتِهَا دَائِمًا، وَتَدَفَّقَتْ إِلَى أَسْفَلَ عِنْدَ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ فِي مَجْرًى مَائِيٍّ صَغِيرٍ رَاحَ يَتَّسِعُ وَيَتَّسِعُ أَثْنَاءَ تَدَفُّقِهِ حَتَّى صَارَ الْجَدْوَلَ الضَّاحِكَ. فَخَلَعَ ابْنُ الْمُزَارِعِ براون قُبَّعَتَهُ الْقَدِيمَةَ

الْمُهْتَرِئَةَ الْمَصْنُوعَةَ مِنَ الْقَشِّ وَنَظَرَ، مُقَطِّبًا جَبِينَهُ، إِلَى الْمَاءِ الْمُتَدَفِّقِ كَأَنَّمَا ظَنَّ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُفْتَرَضِ أَنْ يَتَدَفَّقَ هُنَاكَ.

طَبْعًا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فَقَطْ مَا يَظُنُّهُ؛ فَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُ كَانَ فِي حَيْرَةٍ شَدِيدَةٍ؛ فَهَا هِيَ الْيَنَابِيعُ مُتَدَفِّقَةٌ كَعَادَتِهَا دَائِمًا، وَهَا هُوَ الْمَجْرَى الْمَائِيُّ الصَّغِيرُ يَتَدَفَّقُ فِي اتِّجَاهِ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ مُحْدِثًا قَرْقَرَةً سُرْعَانَ مَا سَتَتَحَوَّلُ إِلَى ضِحْكَةٍ، كَالْمُعْتَادِ دَائِمًا. وَرَغْمَ ذَلِكَ فَبِالْأَسْفَلِ عِنْدَ الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ فِي الْجِهَةِ الْمُقَابِلَةِ مِنَ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ جَدْوَلٌ ضَاحِكٌ وَلَا بِرْكَةٌ بَاسِمَةٌ. فَشَعَرَ كَأَنَّمَا عَلَيْهِ أَنْ يَقْرُصَ نَفْسَهُ كَيْ يَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّهُ مُسْتَيْقِظٌ وَلَا يَحْلُمُ.

وَقَالَ بِصَوْتٍ عَالٍ: «لَا أَفْهَمُ. لَا أَفْهَمُ مُطْلَقًا، وَلَكِنِّي سَأَعْرِفُ. كُلُّ شَيْءٍ فِي الْعَالَمِ يَحْدُثُ لِسَبَبٍ، وَعِنْدَمَا يَجْهَلُ الْمَرْءُ أَمْرًا، لَا بُدَّ أَنْ يَجْتَهِدَ لِيَعْرِفَ كُلَّ شَيْءٍ عَنْهُ. وَسَأَعْرِفُ مَا حَدَثَ لِلْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ، حَتَّى إِنِ اسْتَغْرَقَ الْأَمْرُ عَامًا!»

ثُمَّ أَخَذَ يَتَتَبَّعُ الْمَجْرَى الْمَائِيَّ الصَّغِيرَ الَّذِي تَدَفَّقَ مُقَرْقِرًا إِلَى الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ. كَانَ قَدْ تَتَبَّعَ ذَلِكَ الْمَجْرَى أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، وَوَجَدَهُ الْآنَ كَعَهْدِهِ بِهِ تَمَامًا؛ فَكُلَّمَا جَرَى، اتَّسَعَ حَتَّى صَارَ الْجَدْوَلَ الضَّاحِكَ الْمَعْهُودَ لَهُ فِي النِّهَايَةِ، الَّذِي يَتَدَفَّقُ بِمَرَحٍ فَوْقَ الصُّخُورِ لِيُكَوِّنَ الْبِرَكَ الْعَمِيقَةَ الَّتِي يَطِيبُ لِأَسْمَاكِ السَّلَمُونِ الْمُرَقَّطِ الِاخْتِبَاءُ فِيهَا. وَأَخِيرًا بَلَغَ أَطْرَافَ تَجْوِيفٍ صَغِيرٍ مُنْبَسِطٍ فِي قَلْبِ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ. كَانَ يَعْرِفُ مَا بِالْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ مِنْ أَخَادِيدَ عَمِيقَةٍ رَائِعَةٍ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَكَمْ يَطِيبُ لِأَسْمَاكِ السَّلَمُونِ الْمُرَقَّطِ الْكَبِيرَةِ أَنْ تَرْقُدَ فِيهَا؛ لِعُمْقِهَا وَبُرُودَتِهَا! كَانَ يُفَكِّرُ بِتِلْكَ الْأَسْمَاكِ الْآنَ وَيَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهُ جَلَبَ مَعَهُ صِنَّارَتَهُ. وَمَرَّ بِصُعُوبَةٍ عَبْرَ أَجَمَةٍ مِنْ أَشْجَارِ جَارِ الْمَاءِ، ثُمَّ تَوَقَّفَ ابْنُ الْمُزَارِعِ براون فَجْأَةً وَشَهَقَ بِقُوَّةٍ! فَقَدِ اضْطُرَّ إِلَى التَّوَقُّفِ؛ إِذْ وَجَدَ أَمَامَهُ مُبَاشَرَةً بِرْكَةً!

فَرَكَ عَيْنَيْهِ ثُمَّ أَعَادَ النَّظَرَ. ثُمَّ انْحَنَى وَوَضَعَ يَدَهُ فِي الْمَاءِ لِيَعْرِفَ هَلْ كَانَ حَقِيقِيًّا. وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ مَجَالٌ شَكٍّ. كَانَ مَاءً حَقِيقِيًّا، وَبِرْكَةً حَقِيقِيَّةً فِي مَوْضِعٍ لَمْ يَكُنْ فِيهِ بِرْكَةٌ قَطُّ. وَقَدْ سَادَ السُّكُونُ أَرْجَاءَ جَوْفِ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ. وَطَالَمَا سَادَ السُّكُونُ فِي أَرْجَاءِ تِلْكَ الْبُقْعَةِ، وَلَكِنَّهَا بَدَتْ أَكْثَرَ سُكُونًا مِنَ الْمُعْتَادِ بَيْنَمَا كَانَ يَسِيرُ حَوْلَ ضِفَافِ تِلْكَ الْبِرْكَةِ الْغَرِيبَةِ. شَعَرَ كَأَنَّهُ يَحْلُمُ، وَتَسَاءَلَ فِي نَفْسِهِ عَمَّا إِذَا كَانَ سَيَصْحُو عَمَّا قَرِيبٍ وَيَكْتَشِفُ أَنَّ

كُلَّ ذَلِكَ خَيَالٌ. وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَحْدُثْ، فَظَلَّ يَسِيرُ حَتَّى بَلَغَ سَدًّا رَائِعًا مِنْ جُذُوعِ الْأَشْجَارِ وَالْعِصِيِّ وَالطِّينِ. وَكَانَ الْمَاءُ يَتَدَفَّقُ فَوْقَهُ، وَتَنَاهَى إِلَى مَسَامِعِهِ صَوْتُ الْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ بِالْأَسْفَلِ فِي الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ، وَقَدْ بَدَأَ لِتَوِّهِ يَضْحَكُ مِنْ جَدِيدٍ. فَجَلَسَ ابْنُ الْمُزَارِعِ براون وَاضِعًا مِرْفَقَيْهِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَارْتَكَزَ بِذَقَنِهِ عَلَى كَفَّيْهِ، وَقَدْ بَلَغَتْ مِنْهُ الدَّهْشَةُ مَبْلَغًا أَعْجَزَهُ حَتَّى عَنِ التَّفْكِيرِ.

الفصل الثامن

مُغَامَرَةُ الْأَرْنَبِ بيتر الْمَائِيَّةُ

جَلَسَ ابْنُ الْمُزَارِعِ براون وَاضِعًا ذَقَنَهُ بَيْنَ كَفَّيْهِ، وَمُحَدِّقًا النَّظَرَ فِي الْبِرْكَةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ وَفِي السَّدِّ الَّذِي تَسَبَّبَ فِي تَكْوِينِهَا؛ فَقَدْ أَصَابَهُ ذَلِكَ السَّدُّ بِالْحَيْرَةِ. مَنْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ بَنَاهُ؟ وَلِمَ؟ وَلِمَ لَمْ يَسْمَعْ صَوْتَ تَقْطِيعِ الْخَشَبِ؟ وَأَلْقَى نَظْرَةً لَا مُبَالِيَةً عَلَى مَا تَبَقَّى مِنْ جِذْعِ شَجَرَةٍ بَعْدَ تَقْطِيعِهِ، ثُمَّ تَقَطَّبَ جَبِينُهُ إِثْرَ نَظْرَةٍ أَكْثَرَ حَيْرَةً؛ فَقَدْ بَدَا تَمَامًا كَأَنَّ أَسْنَانًا قَطَعَتْ تِلْكَ الشَّجَرَةَ لَا فَأْسًا. فَظَلَّ ابْنُ الْمُزَارِعِ براون يُحَدِّقُ النَّظَرَ، فَاغِرًا فَاهُ فِي دَهْشَةٍ. فَكَانَ مَنْظَرُهُ مُضْحِكًا جِدًّا حَتَّى إِنَّ الْأَرْنَبَ بيتر، الَّذِي كَانَ مُخْتَبِئًا أَسْفَلَ كَوْمَةٍ مِنَ الْأَغْصَانِ الْمُتَشَابِكَةِ الْقَدِيمَةِ بِالْقُرْبِ مِنْهُ، كَادَ يَنْفَجِرُ ضَاحِكًا.

وَلَكِنَّ بيتر لَمْ يَضْحَكْ. كَلَّا، لَمْ يَضْحَكْ؛ فَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ تَحْدِيدًا طَرَأَ أَمْرٌ؛ فَقَدْ سَمِعَ صَوْتًا مِنْ وَرَائِهِ مُبَاشَرَةً، عِنْدَ طَرَفِ كَوْمَةِ الْأَغْصَانِ الْمُتَشَابِكَةِ الْقَدِيمَةِ، فَانْتَصَبَ شَعْرُهُ خَوْفًا.

«هَاوْ هَاوْ هَاوْ!» بَدَا لِبيتر كَأَنَّ ذَلِكَ الصَّوْتَ الرَّهِيبَ يُدَوِّي دَاخِلَ أُذُنَيْهِ. وَقَدْ أَخَافَهُ أَيَّمَا خَوْفٍ حَتَّى إِنَّهُ اضْطُرَّ إِلَى الْقَفْزِ. لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ وَقْتٌ لِلتَّفْكِيرِ. فَقَفَزَ مِنْ تَحْتِ كَوْمَةِ الْأَغْصَانِ وَطَبْعًا صَارَ ظَاهِرًا لِلْعِيَانِ. وَمَا إِنْ قَفَزَ حَتَّى أَتَى صَوْتُ نُبَاحٍ عَالٍ مِنْ خَلْفِهِ مَرَّةً أُخْرَى. بِالطَّبْعِ كَانَ ذَلِكَ صَوْتَ كَلْبِ الصَّيْدِ باوزر. فَقَدْ كَانَ باوزر يَتَقَفَّى أَثَرَ سَيِّدِهِ، وَلَكِنْ بِمَا أَنَّهُ دَائِمًا مَا يَتَوَقَّفُ لِيَتَشَمَّمَ كُلَّ مَا يَمُرُّ بِهِ، فَقَدْ كَانَ وَرَاءَهُ بِمَسَافَةٍ. وَعِنْدَمَا بَلَغَ كَوْمَةَ الْأَغْصَانِ الْمُتَشَابِكَةِ الَّتِي كَانَ بيتر مُخْتَبِئًا تَحْتَهَا تَشَمَّمَهَا، وَبِالطَّبْعِ تَعَرَّفَ رَائِحَةَ بيتر عَلَى الْفَوْرِ.

كَانَ بيتر قَدْ قَفَزَ عَلَى حِينِ غِرَّةٍ، حَتَّى إِنَّهُ نَزَلَ عَلَى أَحَدِ جَانِبَيِ السَّدِّ بِالضَّبْطِ. وَعِنْدَمَا نَبَحَ باوزر ثَانِيَةً بِصَوْتِهِ الرَّهِيبِ اشْتَدَّ خَوْفُهُ أَكْثَرَ، فَقَفَزَ فَوْقَ السَّدِّ نَفْسِهِ. فَلَمْ يَعُدْ أَمَامَهُ حِينَئِذٍ سِوَى أَنْ يَعْبُرَهُ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ هُوَ السَّبِيلَ الْأَمْثَلَ. كَلَّا، لَمْ يَكُنِ السَّبِيلَ الْأَمْثَلَ؛ فَقَدْ كَانَ السَّدُّ عِبَارَةً عَنْ كُتْلَةٍ مِنَ الْعِصِيِّ الْمُتَشَابِكَةِ. فَكَانَ فِي مَقْدُورِ السِّنْجَابِ جاك السَّعِيدِ أَوِ السِّنْجَابِ الْأَحْمَرِ ثرثار أَوِ السِّنْجَابِ الْبَرِّيِّ الْمُخَطَّطِ أَنْ يَجْتَازُوهُ بِمُنْتَهَى السُّهُولَةِ. وَلَكِنَّ الْأَرْنَبَ بيتر لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ مَخَالِبُ صَغِيرَةٌ حَادَّةٌ تُمَكِّنُهُ مِنَ التَّشَبُّثِ بِالْجُذُوعِ وَالْعِصِيِّ، فَوَجَدَ نَفْسَهُ فِي وَرْطَةٍ عَلَى الْفَوْرِ. فَرَاحَ يَنْزَلِقُ بَيْنَ الْعِصِيِّ، ثُمَّ يَصْعَدُ، ثُمَّ يَنْزَلِقُ مُجَدَّدًا، وَأَثْنَاءَ مُحَاوَلَتِهِ أَنْ يَقْفِزَ قَفْزَةً طَوِيلَةً، فَقَدَ اتِّزَانَهُ وَسَقَطَ فِي الْمَاءِ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ!

مِسْكِينٌ بيتر! ظَنَّ نَفْسَهُ قَدْ قَضَى تِلْكَ الْمَرَّةَ. فَقَدْ كَانَ يُمْكِنُهُ السِّبَاحَةُ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ سَبَّاحًا مَاهِرًا وَهُوَ لَا يُحِبُّ الْمَاءَ. وَلَمْ يَكُنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَغُوصَ بَعِيدًا عَنِ الْأَنْظَارِ مِثْلَ فَأْرِ الْمِسْكِ جيري أَوِ الْمِنْكِ بيلي. فَلَيْسَ فِي مَقْدُورِهِ سِوَى تَحْرِيكِ قَدَمَيْهِ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ. كَانَ الْمَاءُ قَدْ دَخَلَ مِنْ أَنْفِهِ وَنَزَلَ فِي حَلْقِهِ حَتَّى غُصَّ حَلْقُهُ، وَكَانَ وَاثِقًا طَوَالَ الْوَقْتِ أَنَّ كَلْبَ الصَّيْدِ باوزر سَيَقْفِزُ خَلْفَهُ وَيُمْسِكُ بِهِ. وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ، فَسَيَنْتَظِرُهُ ابْنُ الْمُزَارِعِ براون بِبَسَاطَةٍ حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْبَرِّ ثُمَّ يُمْسِكُ بِهِ.

وَلَكِنَّ ابْنَ الْمُزَارِعِ براون لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، كَلَّا، لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، وَإِنَّمَا صَاحَ بِباوزر آمِرًا إِيَّاهُ بِالِابْتِعَادِ. لَمْ يَكُنْ باوزر يَرْغَبُ فِي الْمَجِيءِ، وَلَكِنَّهُ تَعَلَّمَ الطَّاعَةَ مُنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ، فَسَارَ مُتَبَاطِئًا إِلَى حَيْثُ جَلَسَ سَيِّدُهُ.

فَقَالَ لَهُ سَيِّدُهُ: «تَعْلَمُ أَنَّهُ مِنَ الظُّلْمِ أَنْ نُحَاوِلَ الْإِمْسَاكَ بِبيتر الْآنَ يَا صَدِيقِيَ الْعَجُوزَ. سَيَكُونُ ذَلِكَ ظُلْمًا كَبِيرًا، وَنَحْنُ لَا نُرِيدُ أَنْ نَأْتِيَ بِظُلْمٍ أَبَدًا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟» رُبَّمَا لَمْ يُوَافِقْهُ باوزر الرَّأْيَ، وَلَكِنَّهُ هَزَّ ذَيْلَهُ كَأَنَّمَا وَافَقَهُ، وَجَلَسَ إِلَى جَانِبِهِ لِيُرَاقِبَ بيتر أَثْنَاءَ سِبَاحَتِهِ.

بَدَا لِبيتر كَأَنَّهُ لَنْ يَبْلُغَ الْبَرَّ أَبَدًا أَبَدًا، وَإِنْ كَانَ فِي الْحَقِيقَةِ قَدْ سَبَحَ مَسَافَةً قَصِيرَةً جِدًّا. وَعِنْدَمَا خَرَجَ مِنَ الْمَاءِ أَخِيرًا، كَانَ يَبْدُو أَرْنَبًا تَعِسًا. فَلَمْ يُضِعْ وَقْتًا، وَإِنَّمَا انْطَلَقَ إِلَى بَيْتِهِ مُطْلِقًا سَاقَيْهِ لِلرِّيحِ. فَاكْتَفَى ابْنُ الْمُزَارِعِ براون وَكَلْبُ الصَّيْدِ باوزر بِالضَّحِكِ وَلَمْ يُحَاوِلَا الْإِمْسَاكَ بِهِ مُطْلَقًا.

فَهَتَفَ طَائِرُ السِّنْدِيَانِ سامي، الَّذِي شَاهَدَ كُلَّ مَا حَدَثَ مِنْ عَلَى شَجَرَةِ صَنَوْبَرٍ: «عَجَبًا! عَجَبًا! يَبْدُو إِذَنْ أَنَّ ابْنَ الْمُزَارِعِ براون لَيْسَ شِرِّيرًا تَمَامًا.»

الفصل التاسع

رَسْمُ خُطَّةِ الْبَيْتِ

جَلَسَ الْقُنْدُسُ بادي عَلَى السَّدِّ الَّذِي بَنَاهُ وَقَدْ لَاحَ السُّرُورُ فِي عَيْنَيْهِ لَدَى نَظَرِهِ إِلَى بِرْكَةِ الْمَاءِ الْبَرَّاقَةِ الَّتِي صَنَعَهَا، وَقَدْ أَحَاطَتْ بِحَافَتِهَا أَشْجَارُ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ الْعَالِيَةُ؛ فَكَانَتْ بَالِغَةَ الْجَمَالِ وَالسُّكُونِ وَالْعُزْلَةِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا قَدْ تَبْدُو مُنْعَزِلَةً لِأَيِّ أَحَدٍ تَقْرِيبًا عَدَا الْقُنْدُسِ بادي. وَلَكِنَّ بادي لَا يَشْعُرُ بِالْعُزْلَةِ أَبَدًا. فَرِفَاقُهُ هُمُ الْأَشْجَارُ وَالزُّهُورُ وَالنَّبَاتَاتُ الصَّغِيرَةُ كَافَّةً.

وَكَانَ السُّكُونُ يَعُمُّ الْمَكَانَ؛ سُكُونٌ بَالِغٌ فِي الْحَقِيقَةِ. وَمِنْ نَاحِيَةٍ لَاحَ بَرِيقٌ وَرْدِيٌّ جَمِيلٌ عَلَى صَفْحَةِ الْمَاءِ. كَانَ ذَاكَ انْعِكَاسَ قُرْصِ الشَّمْسِ الْأَحْمَرِ الْمُسْتَدِيرِ الْمَرِحِ. لَمْ يَكُنْ بِإِمْكَانِ بادي رُؤْيَتُهُ بِسَبَبِ الْأَشْجَارِ الْعَالِيَةِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ عَلَى عِلْمٍ تَامٍّ بِمَا تَفْعَلُهُ الشَّمْسُ. كَانَتْ تَأْوِي إِلَى فِرَاشِهَا خَلْفَ التِّلَالِ الْأُرْجُوَانِيَّةِ. وَسُرْعَانَ مَا سَتَظْهَرُ لَهُ النُّجُومُ الصَّغِيرَةُ الْمُتَلَأْلِئَةُ. كَانَ يُحِبُّ تِلْكَ النُّجُومَ الصَّغِيرَةَ وَدَائِمًا مَا يَتَرَقَّبُ ظُهُورَ تَبَاشِيرِهَا. نَعَمْ؛ كَانَ الْقُنْدُسُ بادي يَشْعُرُ بِسَعَادَةٍ غَامِرَةٍ. وَكَادَتْ سَعَادَتُهُ تَكْتَمِلُ لَوْلَا شَيْءٌ وَاحِدٌ: أَنَّ ابْنَ الْمُزَارِعِ براون اكْتَشَفَ سَدَّهُ وَبِرْكَتَهُ عَصْرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَلَمْ يَكُنْ بادي مُتَأَكِّدًا تَمَامًا مِمَّا قَدْ يَفْعَلُهُ ابْنُ الْمُزَارِعِ براون. فَقَدِ اخْتَبَأَ جَيِّدًا أَثْنَاءَ وُجُودِ ابْنِ الْمُزَارِعِ براون، وَكَانَ شِبْهَ وَاثِقٍ مِنْ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَنْ بَنَى السَّدَّ. وَلَكِنْ لِهَذَا السَّبَبِ، رُبَّمَا يُحَاوِلُ تَقَصِّيَ الْأَمْرِ، وَهُوَ مَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ بادي دَائِمَ الْيَقَظَةِ.

وَقَالَ بادي لِنَفْسِهِ: «وَمَا جَدْوَى الْقَلَقِ بِشَأْنِ مَتَاعِبَ لَمْ تَأْتِ بَعْدُ، وَرُبَّمَا لَا تَأْتِي أَبَدًا؟! سَيَكُونُ ثَمَّةَ وَقْتٌ كَافٍ لِلْقَلَقِ عِنْدَمَا تَأْتِي»، وَهُوَ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ بادي يَتَحَلَّى بِقَدْرٍ

كَبِيرٍ مِنْ زَجَاجَةِ الْعَقْلِ دَاخِلَ رَأْسِهِ الْبُنِّيِّ الصَّغِيرِ. ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلًا لِنَفْسِهِ: «وَالْآنَ عَلَيَّ أَنْ أَسْتَعِدَّ لِمَجِيءِ الشِّتَاءِ، وَهُوَ مَا يَتَطَلَّبُ عَمَلًا كَثِيرًا. حَسَنًا، يَجِبُ أَنْ أَبْنِيَ بَيْتًا كَبِيرًا مَتِينًا دَافِئًا، يُوَفِّرُ لِيَ الدِّفْءَ وَالْأَمَانَ عِنْدَمَا تَتَجَمَّدُ بِرْكَتِي. وَلَا بُدَّ أَنْ أَجْمَعَ خَزِينًا مِنَ الطَّعَامِ، يَكْفِينِي حَتَّى تُقْبِلَ الرِّيَاحُ الْجَنُوبِيَّةُ الرَّقِيقَةُ تَمْهِيدًا لِمَجِيءِ الرَّبِيعِ الْبَدِيعِ. يَا إِلَهِي، لَا وَقْتَ لَدَيَّ أُضَيِّعُهُ فِي الْجُلُوسِ هُنَا شَارِدًا، بَيْنَمَا لَدَيَّ الْكَثِيرُ مِنَ الْعَمَلِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ أَقُومَ بِهِ!»

ثُمَّ انْزَلَقَ بادي فِي الْمَاءِ وَسَبَحَ فِي أَرْجَاءِ بِرْكَتِهِ لِيَتَأَكَّدَ مِنَ الْمَوْضِعِ الْأَمْثَلِ لِبِنَاءِ بَيْتِهِ؛ فَإِنَّ إِقَامَةَ الْمَرْءِ مَنْزِلَهُ فِي الْمَوْضِعِ الْأَمْثَلِ لَأَمْرٌ بَالِغُ الْأَهَمِّيَّةِ. بَعْضُ النَّاسِ يُهْمِلُونَ ذَلِكَ الْأَمْرَ إِهْمَالًا شَدِيدًا؛ فَالظَّرِبَانُ جيمي، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، كَثِيرًا مَا يَقَعُ فِي خَطَأِ أَنْ يَحْفِرَ بَيْتَهُ (فَهُوَ يَبِيتُ تَحْتَ الْأَرْضِ كَمَا تَعْلَمُونَ) فِي مَكَانٍ يُمْكِنُ لِأَيٍّ مِنَ الْمَارَّةِ أَنْ يَرَاهُ. رُبَّمَا يُعْزَى ذَلِكَ إِلَى أَنَّ جيمي مُسْتَقِلٌّ لِلْغَايَةِ إِلَى حَدِّ أَنَّهُ لَا يَأْبَهُ بِمَعْرِفَةِ النَّاسِ بِمَكَانِ بَيْتِهِ.

وَلَكِنَّ الْقُنْدُسَ بادي لَيْسَ مُهْمِلًا أَبَدًا؛ فَدَائِمًا مَا يَخْتَارُ الْمَوْضِعَ الْأَمْثَلَ. وَيَتَأَكَّدُ مِنْ أَنَّهُ الْأَفْضَلُ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ الْبِنَاءَ. فَالْآنَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَأَكُّدِهِ مِنَ الْمَوْضِعِ الْمُلَائِمِ لِبِنَاءِ بَيْتِهِ، فَقَدْ طَافَ بِالْبِرْكَةِ لِيَتَأَكَّدَ ثَانِيَةً. ثُمَّ عِنْدَمَا اقْتَنَعَ تَمَامًا، سَبَحَ إِلَى الْبُقْعَةِ الَّتِي اخْتَارَهَا. فَكَانَتْ حَيْثُ بَلَغَتِ الْمِيَاهُ عُمْقًا كَبِيرًا.

ثُمَّ قَالَ لِنَفْسِهِ: «يَجِبُ أَلَّا يَكُونَ ثَمَّةَ أَدْنَى فُرْصَةٍ فِي أَنْ يَصِيرَ الْجَلِيدُ سَمِيكًا إِلَى حَدِّ أَنْ يَسُدَّ مَدْخَلِي. أَنَا وَاثِقٌ مِنْ أَنَّ ذَلِكَ لَنْ يَحْدُثَ هُنَا. لَا بُدَّ أَنْ أُرْسِيَ قَوَاعِدَ مَتِينَةً وَأَبْنِيَ جُدْرَانًا سَمِيكَةً. وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَدَيَّ الْكَثِيرُ مِنَ الطِّينِ لِأُسَوِّيَهَا بِهَا، وَفِي الدَّاخِلِ، فَوْقَ سَطْحِ الْمَاءِ، سَيَكُونُ لَدَيَّ غُرْفَةٌ مُرِيحَةٌ دَافِئَةٌ يُمْكِنُنِي أَنْ أَنَامَ فِيهَا مِلْءَ جُفُونِي. هَا هُوَ الْمَكَانُ الْمُنَاسِبُ لِبِنَائِهِ، وَقَدْ حَانَ وَقْتُ الْعَمَلِ.»

وَبِهَذَا سَبَحَ بادي إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي قَطَعَ مِنْهُ الْأَشْجَارَ لِبِنَاءِ السَّدِّ، وَقَدْ شَعَرَ بِالرَّاحَةِ، فَقَدْ تَعَلَّمَ مُنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ أَنَّ السَّبِيلَ الْأَكِيدَ لِلسَّعَادَةِ هُوَ أَنْ يَشْغَلَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ بِالْعَمَلِ.

الفصل العاشر

الشُّرُوعُ فِي بِنَاءِ الْبَيْتِ

أَبْدَى فَأْرُ الْمِسْكِ جيري اهْتِمَامًا كَبِيرًا عِنْدَمَا نَمَى إِلَى عِلْمِهِ أَنَّ الْقُنْدُسَ بادي، ابْنَ عَمِّهِ كَمَا تَعْلَمُونَ، سَيَشْرَعُ فِي بِنَاءِ بَيْتٍ. فَجيري نَفْسُهُ يَبْرَعُ فِي بِنَاءِ الْبُيُوتِ، وَقَدْ تَمَلَّكَهُ شَكٌّ كَبِيرٌ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ فِي أَنْ تُضَاهِيَ قُدْرَةُ بادي عَلَى بِنَاءِ بَيْتٍ قُدْرَتَهُ؛ فَبَيْتُ جيري بِالْأَسْفَلِ فِي الْبِرْكَةِ الْبَاسِمَةِ، وَكَانَ يَعُدُّهُ بَيْتًا رَائِعًا حَقًّا، وَيَفْخَرُ بِهِ أَشَدَّ الْفَخْرِ؛ فَقَدْ صَنَعَهُ مِنَ الطِّينِ وَحَشَائِشِ الْمَرْجِ وَبَعْضِ الْأَغْصَانِ مِنْ أَشْجَارِ جَارِ الْمَاءِ وَالصَّفْصَافِ وَأَعْشَابِ الْبِرَكِ. وَقَدْ أَمْضَى فِيهِ جيري شِتَاءً، وَكَانَ قَدِ اعْتَزَمَ قَضَاءَ شِتَاءٍ آخَرَ فِيهِ بَعْدَ أَنْ يُدْخِلَ عَلَيْهِ بَعْضَ الْإِصْلَاحَاتِ. فَبِمَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُضْطَرًّا لِبِنَاءِ بَيْتٍ جَدِيدٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَمْلِكُ مِنَ الْوَقْتِ مَا يَكْفِيهِ لِمُشَاهَدَةِ عَمَلِ ابْنِ عَمِّهِ بادي. فَرُبَّمَا كَانَ يَأْمُلُ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ بادي الْمَشُورَةَ.

وَلَكِنَّ بادي لَمْ يَطْلُبْهَا. وَكَانَ قَدْ رَأَى بَيْتَ فَأْرِ الْمِسْكِ جيري، وَابْتَسَمَ. وَلَكِنَّهُ بَذَلَ أَقْصَى مَا فِي وُسْعِهِ لِكَيْلَا يَرَى جيري تِلْكَ الِابْتِسَامَةَ؛ فَهُوَ لَمْ يَرْغَبْ فِي جَرْحِ مَشَاعِرِ جيري قَطُّ؛ فَقَدْ كَانَ أَلْطَفَ وَأَطْيَبَ مِنْ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ. وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ جَلَسَ جيري عَلَى طَرَفِ جِذْعِ شَجَرَةٍ قَدِيمٍ وَرَاحَ يُرَاقِبُ بادي أَثْنَاءَ عَمَلِهِ. فِي الْبِدَايَةِ، يَجِبُ إِرْسَاءُ قَوَاعِدِ الْبَيْتِ، الْمُكَوَّنَةِ مِنَ الطِّينِ وَالْحَشَائِشِ الْمُطَعَّمَيْنِ بِعِصِيٍّ تَحْفَظُ تَمَاسُكَهُمَا. كَانَ بادي يَحْفِرُ لِيَجْلِبَ الطِّينَ مِنْ قَاعِ بِرْكَتِهِ الْجَدِيدَةِ. وَبِمَا أَنَّهَا جَدِيدَةٌ، فَقَدْ كَانَ بِهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْمَرْجِ الْعُشْبِيِّ، وَهُوَ مَا كَانَ بادي فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ؛ فَكَانَ مُؤَاتِيًا جِدًّا.

ظَلَّ جيري يُرَاقِبُهُ بُرْهَةً، ثُمَّ إِنَّهُ — إِذْ كَانَ مُعْتَادًا عَلَى الْعَمَلِ أَيْضًا — شَعَرَ أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَشْغَلَ نَفْسَهُ بِالْمُسَاعَدَةِ. فَأَخْبَرَ ابْنَ عَمِّهِ الضَّخْمَ، عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، أَنَّهُ يَوَدُّ مُشَارَكَتَهُ فِي بِنَاءِ الْبَيْتِ الْجَدِيدِ.

فَأَجَابَهُ بادي قَائِلًا: «حَسَنًا، لَا بَأْسَ. يُمْكِنُكَ أَنْ تَجْلِبَ الطَّمْيَ بَيْنَمَا أُحْضِرُ أَنَا الْعِصِيَّ وَالْحَشَائِشَ.»

فَغَاصَ جيري إِلَى قَاعِ الْبُحَيْرَةِ وَحَفَرَهَا لِيَحْصُلَ عَلَى الطِّينِ وَكَوَّمَهُ عَلَى قَاعِدَةِ الْبَيْتِ مَسْرُورًا. وَكَانَتِ النُّجُومُ الصَّغِيرَةُ تُطِلُّ عَلَيْهِمَا مُتَلَأْلِئَةً أَثْنَاءَ عَمَلِهِمَا. أَخَذَتْ قَاعِدَةُ الْبَيْتِ تَمْتَدُّ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ تَحْتَ سَطْحِ الْمَاءِ، وَقَدِ انْتَابَتْ جيري دَهْشَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ حَجْمِهَا؛ فَقَدْ كَانَتْ أَكْبَرَ كَثِيرًا مِنْ قَاعِدَةِ بَيْتِهِ؛ فَقَدْ نَسِيَ كَمْ أَنَّ بادي أَضْخَمُ مِنْهُ.

فَكَانَ جيري وَبادي يَعْمَلَانِ كُلَّ لَيْلَةٍ، وَيَسْتَرِيحَانِ أَثْنَاءَ النَّهَارِ. وَمِنْ حِينٍ لِآخَرَ كَانَ الرَّاكُونُ بوبي أَوِ الثَّعْلَبُ ريدي أَوِ الْعَمُّ بيلي الْأَبُوسُومُ أَوِ الظَّرِبَانُ جيمي؛ يَأْتِي لِحَافَةِ الْبِرْكَةِ لِمُشَاهَدَةِ مَا يَجْرِي، وَكَانَ الْأَرْنَبُ بيتر يَأْتِي كُلَّ لَيْلَةٍ. وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ رُؤْيَةِ الْكَثِيرِ؛ فَقَدْ كَانَ بادي وَجيري يَعْمَلَانِ تَحْتَ الْمَاءِ، كَمَا تَعْلَمُونَ.

وَلَكِنَّ الْأَرْنَبَ بيتر رَأَى مَا أَسْعَدَهُ كَثِيرًا فِي النِّهَايَةِ؛ فَهُنَاكَ، فَوْقَ سَطْحِ الْمَاءِ مُبَاشَرَةً ظَهَرَتْ مِنَصَّةٌ مُبْهِرَةٌ مِنَ الطِّينِ وَالْأَعْشَابِ وَالْعِصِيِّ. وَمَا إِنْ ظَهَرَتِ الْمِنَصَّةُ فَوْقَ سَطْحِ الْمَاءِ حَتَّى شَرَعَ بادي فِي رَصِّ عِصِيٍّ كَثِيرَةٍ فَوْقَهَا؛ فَقَدْ كَانَ بادي دَقِيقًا لِلْغَايَةِ فِي هَذَا الشَّأْنِ. فَتِلْكَ كَانَتْ أَرْضِيَّةَ الْغُرْفَةِ الَّتِي انْتَوَى بِنَاءَهَا. وَبَدَأَ يُكَوِّمُ الطِّينَ فِي مُنْتَصَفِهَا تَمَامًا عِنْدَمَا وَجَدَ ذَلِكَ مُلَائِمًا.

ظَلَّ جيري يُفَكِّرُ مُحْتَارًا فِي هَذَا الْأَمْرِ. فَأَيْنَ سَتَكُونُ غُرْفَةُ بادي إِنْ ظَلَّ يُكَوِّمُ الطِّينَ هَكَذَا؟ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُحِبُّ تَوْجِيهَ الْأَسْئِلَةِ؛ لِذَا وَاصَلَ مُسَاعَدَةَ بادي. فَكَانَ بادي يَغُوصُ حَتَّى الْقَاعِ ثُمَّ يَصْعَدُ مُمْسِكًا بِقَدْرٍ يَزِيدُ عَنْ مِلْءِ كَفَّيْهِ مِنَ الطِّينِ، وَضَامًّا يَدَيْهِ إِلَى صَدْرِهِ. ثُمَّ يَتَسَلَّقُ الْمِنَصَّةَ وَيَتَهَادَى حَتَّى كَوْمَةِ الطِّينِ؛ حَيْثُ كَانَ يَضَعُ الطِّينَ ثُمَّ يُسَوِّيهِ، وَيَغُوصُ مُجَدَّدًا إِلَى الْقَاعِ لِيَجْلِبَ الْمَزِيدَ مِنَ الطِّينِ.

فَرَاحَتْ كَوْمَةُ الطِّينِ تَعْلُو وَتَعْلُو، حَتَّى بَلَغَ ارْتِفَاعُهَا حَوَالَيْ ٦٠ سَنْتِيمِتْرًا.

فَقَالَ بادي: «حَانَ دَوْرُ بِنَاءِ الْجُدْرَانِ، وَلَا أَظُنُّ أَنَّهُ ثَمَّةَ الْكَثِيرُ مِمَّا يُمْكِنُكَ أَنْ تَفْعَلَهُ لِمُسَاعَدَتِي فِيهِ. سَأَشْرَعُ فِي بِنَائِهَا مَسَاءَ الْغَدِ. رُبَّمَا تَوَدُّ أَنْ تَكْتَفِيَ بِمُشَاهَدَتِي أَثْنَاءَ عَمَلِي يَا ابْنَ الْعَمِّ جيري.»

فَأَجَابَهُ جيري، بَيْنَمَا كَانَ مَا زَالَ يُفَكِّرُ مُحْتَارًا فِي كَوْمَةِ الطِّينِ الْمَوْضُوعَةِ فِي الْمُنْتَصَفِ: «بِالتَّأْكِيدِ.»

الفصل الحادي عشر

حَيْرَةُ الْأَرْنَبِ بيتر وَفَأْرِ الْمِسْكِ جيري

أَخَذَ فَأْرُ الْمِسْكِ جيري يَزْدَادُ ثِقَةً مِنْ أَنَّ ابْنَ عَمِّهِ الضَّخْمَ، الْقُنْدُسَ بادي، لَا يَعْلَمُ مَا قَدْ يَعْلَمُهُ جيري عَنْ بِنَاءِ الْبُيُوتِ. وَدَّ جيري أَنْ يُقَدِّمَ إِلَيْهِ بَعْضَ الِاقْتِرَاحَاتِ لَكِنَّهُ لَمْ يَجْرُؤْ؛ فَقَدْ كَانَ شَدِيدَ الْقَلَقِ مِنْ أَنْ يُضَايِقَ ابْنَ عَمِّهِ الضَّخْمَ. وَلَكِنَّهُ شَعَرَ أَنَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَى الْبَوْحِ بِرَأْيِهِ لِأَحَدٍ؛ لِذَا سَبَحَ إِلَى حَيْثُ كَانَ يَرَى الْأَرْنَبَ بيتر كُلَّ لَيْلَةٍ تَقْرِيبًا مُنْذُ بَدَأَ بادي عَمَلِيَّةَ الْبِنَاءِ. وَبِالْفِعْلِ كَانَ الْأَرْنَبُ بيتر هُنَاكَ، مُنْتَصِبًا فِي جِلْسَتِهِ وَمُحَدِّقًا بِعَيْنَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ مُسْتَدِيرَتَيْنِ فِي مِنَصَّةِ الطِّينِ وَالْعِصِيِّ الْقَائِمَةِ فِي الْمَاءِ حَيْثُ كَانَ الْقُنْدُسُ بادي يَعْمَلُ.

فَسَأَلَهُ جيري: «حَسَنًا يَا بيتر، مَا رَأْيُكَ؟»

فَسَأَلَهُ الْأَرْنَبُ بيتر بِبَرَاءَةٍ: «وَمَا هَذَا؟ هَلْ هُوَ سَدٌّ جَدِيدٌ؟»

فَأَلْقَى جيري رَأْسَهُ إِلَى الْوَرَاءِ وَرَاحَ يَضْحَكُ وَيَضْحَكُ.

فَنَظَرَ إِلَيْهِ بيتر بِرِيبَةٍ وَقَالَ: «لَا أَرَى سَبَبًا لِلضَّحِكِ.»

فَأَجَابَهُ جيري مَاسِحًا دُمُوعَ الضَّحِكِ مِنْ عَيْنَيْهِ: «عَجَبًا! ذَلِكَ بَيْتٌ أَيُّهَا الْأَحْمَقُ. إِنَّهُ بَيْتُ بادي الْجَدِيدُ.»

فَرَدَّ عَلَيْهِ بيتر بِسُرْعَةٍ: «لَسْتُ بِأَحْمَقَ! كَيْفَ كَانَ لِي أَنْ أَعْرِفَ أَنَّ كَوْمَةَ الطِّينِ وَالْعِصِيِّ تِلْكَ الْغَرَضُ مِنْهَا بِنَاءُ بَيْتٍ؟! فَالْأَكِيدُ أَنَّهُ لَا يَبْدُو بَيْتًا. فَأَيْنَ بَابُهُ؟!»

فَأَجَابَهُ جيري قَائِلًا: «أَصْدُقُكَ الْقَوْلَ؛ إِنِّي عَنْ نَفْسِي لَا أَظُنُّهُ يَرْقَى إِلَى مُسْتَوَى الْبَيْتِ. إِنَّ لَهُ بَابًا، بَلْ ثَلَاثَةَ أَبْوَابٍ، وَلَكِنْ لَا يُمْكِنُكَ رُؤْيَتُهَا؛ لِأَنَّهَا تَحْتَ سَطْحِ الْمَاءِ، وَكُلٌّ مِنْهَا يَمْتَدُّ مِنْهُ مَمَرٌّ إِلَى أَعْلَى يَخْتَرِقُ مِنَصَّةَ الطِّينِ وَالْعِصِيِّ ذَاتَهَا، الَّتِي تُمَثِّلُ قَاعِدَةَ الْبَيْتِ. إِنَّهَا قَاعِدَةٌ مَتِينَةٌ حَقًّا يَا بيتر. وَلَكِنِّي لَا أَفْهَمُ مَا يَقْصِدُ بادي بِبِنَائِهِ تِلْكَ الْكَوْمَةَ الْكَبِيرَةَ مِنَ

الطِّينِ فِي مُنْتَصَفِ الْمِنَصَّةِ تَمَامًا. فَعِنْدَمَا يَفْرَغُ مِنْ بِنَاءِ الْجُدْرَانِ، أَيْنَ سَتَكُونُ حُجْرَةُ نَوْمِهِ؟ لَنْ تَكُونَ ثَمَّةَ حُجْرَةُ نَوْمٍ مُطْلَقًا. فَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بَيْتًا عَلَى الْإِطْلَاقِ، بَلْ مُجَرَّدَ كَوْمَةٍ كَبِيرَةٍ عَدِيمَةِ الْجَدْوَى مِنَ الْعِصِيِّ وَالطِّينِ.»

فَحَكَّ بيتر رَأْسَهُ ثُمَّ جَذَبَ شَوَارِبَهُ مُتَفَكِّرًا، بَيْنَمَا أَمْعَنَ النَّظَرَ فِي الْكَوْمَةِ الْقَائِمَةِ فِي الْمَاءِ حَيْثُ كَانَ الْقُنْدُسُ بادي يَعْمَلُ.

ثُمَّ قَالَ: «يَبْدُو ذَلِكَ ضَرْبًا مِنَ الْحَمَاقَةِ فِعْلًا. لِمَ لَا تُنَبِّهُهُ إِلَى الْخَطَإِ الَّذِي يَرْتَكِبُهُ يَا جيري؟! لَقَدْ بَنَيْتَ لِنَفْسِكَ بَيْتًا رَائِعًا فَحَرِيٌّ بِكَ أَنْ تَتَمَكَّنَ مِنْ مُسَاعَدَةِ بادي وَتَنْبِيهِهِ إِلَى أَخْطَائِهِ.»

ابْتَسَمَ جيري بِرِضًا بَالِغٍ عِنْدَمَا ذَكَرَ بيتر بَيْتَهُ الْجَمِيلَ، وَلَكِنَّهُ هَزَّ رَأْسَهُ لَدَى اقْتِرَاحِ أَنْ يُسْدِيَ النُّصْحَ لِبادي.

وَقَالَ مُعْتَرِفًا: «لَا أُرِيدُ؛ فَقَدْ لَا يَرُوقُ لَهُ ذَلِكَ — وَلَا أَظُنُّهُ تَصَرُّفًا مُهَذَّبًا.»

قَالَ بيتر فِي رَفْضٍ: «مَا كَانَ ذَلِكَ لِيَشْغَلَ بَالِي لَوْ كَانَ ابْنَ عَمِّي.»

فَهَزَّ جيري رَأْسَهُ وَقَالَ: «نَعَمْ، أَظُنُّكَ مَا كُنْتَ لِتَشْغَلَ بَالَكَ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ يَشْغَلُ بَالِي أَنَا وَ... وَ... حَسَنًا، أَظُنُّنِي سَأَنْتَظِرُ قَلِيلًا.»

طَوَالَ ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَ بادي يَعْمَلُ بِكَدٍّ؛ فَكَانَ يَجْلِبُ أَطْوَلَ الْأَغْصَانِ الَّتِي قَطَعَهَا مِنَ الْأَشْجَارِ الَّتِي بَنَى مِنْهَا السَّدَّ، وَفُرُوعًا رَفِيعَةً كَثِيرَةً مِنْ أَشْجَارِ الصَّفْصَافِ وَجَارِ الْمَاءِ. كَانَ يَدْفَعُهَا أَمَامَهُ سَابِحًا. وَعِنْدَمَا يَبْلُغُ قَاعِدَةَ بَيْتِهِ، يُمِيلُهَا عَلَى كَوْمَةِ الطِّينِ فِي الْمُنْتَصَفِ وَاضِعًا أَطْرَافَهَا الْكُبْرَى عَلَى الْقَاعِدَةِ. وَظَلَّ يَعْمَلُ عَلَى ذَلِكَ الْمِنْوَالِ حَوْلَ الْقَاعِدَةِ بِأَكْمَلِهَا حَتَّى اخْتَفَتْ كَوْمَةُ الطِّينِ الْمَوْضُوعَةُ فِي الْمُنْتَصَفِ بَعْدَ حِينٍ؛ فَقَدْ صَارَتْ مُغَطَّاةً تَمَامًا بِالْعِصِيِّ، الَّتِي رُبِطَتْ مِنْ أَعْلَى بِبَرَاعَةٍ.

الفصل الثاني عشر

دَرْسٌ جَدِيدٌ لِفَأْرِ الْمِسْكِ جيري

إِنْ ظَنَنْتَ نَفْسَكَ عَلِيمًا،
فَفِي الْهَاوِيَةِ وَقَعْتَ.
اسْتَعِنْ بِأُذُنَيْكَ وَعَيْنَيْكَ،
وَلِسَانُكَ إِنْ صُنْتَهُ سَلِمْتَ.

سَيُخْبِرُكَ فَأْرُ الْمِسْكِ جيري أَنَّ ذَلِكَ الْقَوْلَ مِنْ أَصْدَقِ مَا يَكُونُ؛ فَهُوَ يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَقَدِ اكْتَشَفَهُ بِنَفْسِهِ. وَالْآنَ صَارَ حَرِيصًا أَشَدَّ الْحِرْصِ بِشَأْنِ مَا يَقُولُهُ عَنِ الْآخَرِينَ أَوْ عَنْ أَفْعَالِهِمْ. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَدِيدَ الْحِرْصِ بَيْنَمَا كَانَ ابْنُ عَمِّهِ، الْقُنْدُس بادي، يَبْنِي بَيْتَهُ. كَلَّا، لَمْ يَكُنْ جيري حَرِيصًا آنَذَاكَ؛ فَقَدْ ظَنَّ أَنَّهُ أَكْثَرُ دِرَايَةً بِكَيْفِيَّةِ بِنَاءِ الْبُيُوتِ مِنْ بادي. كَانَ وَاثِقًا مِنْ ذَلِكَ عِنْدَمَا رَأَى بادي يَرُصُّ كَوْمَةً كَبِيرَةً مِنَ الطِّينِ فِي مُنْتَصَفِ الْمِنَصَّةِ حَيْثُ كَانَ يَنْبَغِي لِغُرْفَتِهِ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ بَنَى جِدَارًا مِنَ الْعِصِيِّ حَوْلَهَا. وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ الرَّأْيِ لِلْأَرْنَبِ بيتر.

وَإِنَّ إِخْبَارَ الْأَرْنَبِ بيتر شَيْئًا لَا تُرِيدُ لِلْآخَرِينَ مَعْرِفَتَهُ تَصَرُّفٌ غَيْرُ مَأْمُونٍ بِالْمَرَّةِ؛ فَبيتر يُكِنُّ احْتِرَامًا كَبِيرًا لِرَأْيِ جيري فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِبِنَاءِ الْبُيُوتِ؛ فَقَدْ كَانَ شَدِيدَ الْإِعْجَابِ بِبَيْتِ جيري الْأَنِيقِ فِي الْبِرْكَةِ الْبَاسِمَةِ، وَقَدْ كَانَ بَيْتًا جَمِيلًا حَقًّا، وَقَدْ يَكُونُ جيري مَعْذُورًا فِي فَخْرِهِ بِهِ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ مَعْذُورًا فِي ظَنِّهِ أَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ عَنْ بِنَاءِ الْبُيُوتِ. وَبِالطَّبْعِ فَقَدْ أَخْبَرَ بيتر كُلَّ مَنْ صَادَفَهُ أَنَّ الْقُنْدُس بادي يَرْتَكِبُ خَطَأً أَحْمَقَ فِي بِنَاءِ بَيْتِهِ، وَأَنَّ فَأْرَ الْمِسْكِ جيري، ذَا الدِّرَايَةِ بِتِلْكَ الْأُمُورِ، قَالَ لَهُ ذَلِكَ.

فَكَانَ سُكَّانُ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ وَالْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ الصِّغَارُ كُلَّمَا وَاتَتْهُمُ الْفُرْصَةُ، يَتَسَلَّلُونَ إِلَى شَاطِئِ بِرْكَةِ بادي الْجَدِيدَةِ ضَاحِكِينَ مِنْ مَنْظَرِ كَوْمَةِ الْعِصِيِّ وَالطِّينِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي بَنَاهَا بادي عَلَى سَبِيلِ الْبَيْتِ، وَلَكِنَّهُ نَسِيَ أَنْ يَصْنَعَ فِيهَا غُرْفَةً. أَوْ إِنَّهُمْ، عَلَى الْأَقَلِّ، افْتَرَضُوا أَنَّهُ نَسِيَ ذَلِكَ الْأَمْرَ الْبَالِغَ الْأَهَمِّيَّةِ. لَا بُدَّ أَنَّهُ نَسِيَهُ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيَّةُ غُرْفَةٍ. فَكَانَ ذَلِكَ مَصْدَرَ تَسْلِيَةٍ كَبِيرًا لَهُمْ. وَكَثِيرًا مَا أَضْحَكَهُمْ، وَقَدْ نَسُوا الْكَثِيرَ مِنَ الِاحْتِرَامِ الَّذِي تَكَوَّنَ لَدَيْهِمْ إِزَاءَ بادي مُنْذُ بِنَائِهِ سَدَّهُ الرَّائِعَ.

وَقَدْ جَلَسَ جيري وَبيتر يَتَحَدَّثَانِ فِي الْأَمْرِ عَلَى ضَوْءِ الْقَمَرِ. كَانَ بادي قَدْ كَفَّ عَنْ جَلْبِ الْعِصِيِّ مِنْ أَجْلِ بِنَاءِ الْجِدَارِ. وَغَاصَ بَعِيدًا عَنِ الْأَنْظَارِ، وَغَابَ فَتْرَةً طَوِيلَةً. وَفَجْأَةً لَاحَظَ جيري أَنَّ الْمَاءَ تَعَكَّرَ بِشِدَّةٍ حَوْلَ بَيْتِ بادي الْجَدِيدِ؛ فَعَقَدَ حَاجِبَيْهِ مُحَاوِلًا التَّفْكِيرَ فِيمَا قَدْ يَكُونُ بادي يَفْعَلُهُ. وَبَعْدَ بُرْهَةٍ، صَعِدَ بادي لِيَلْتَقِطَ أَنْفَاسَهُ، ثُمَّ غَاصَ مُجَدَّدًا، وَازْدَادَ الْمَاءُ تَعَكُّرًا. وَاسْتَمَرَّ عَلَى ذَلِكَ الْمِنْوَالِ فَتْرَةً طَوِيلَةً؛ فَكَانَ بادي يَصْعَدُ لِالْتِقَاطِ أَنْفَاسِهِ وَالْحُصُولِ عَلَى بِضْعِ دَقَائِقَ مِنَ الرَّاحَةِ كُلَّ حِينٍ، ثُمَّ يَغُوصُ إِلَى أَسْفَلَ، وَيَزْدَادُ الْمَاءُ تَعَكُّرًا.

فِي النِّهَايَةِ لَمْ يَعُدْ جيري يُطِيقُ الِانْتِظَارَ. كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ مَا يَجْرِي؛ فَانْزَلَقَ فِي الْمَاءِ وَسَبَحَ إِلَى الْبُقْعَةِ الْأَكْثَرِ تَعَكُّرًا. وَمَا إِنْ بَلَغَهَا حَتَّى صَعِدَ بادي إِلَى أَعْلَى.

فَقَالَ لَهُ بادي: «مَرْحَبًا يَا ابْنَ الْعَمِّ جيري! كُنْتُ عَلَى وَشْكِ دَعْوَتِكَ لِلْمَجِيءِ لِأَعْرِفَ رَأْيَكَ فِي بَيْتِي مِنَ الدَّاخِلِ. اتْبَعْنِي.»

ثُمَّ غَاصَ بادي، وَمِنْ وَرَائِهِ جيري، وَتَبِعَ بادي إِلَى أَحَدِ الْمَدَاخِلِ الثَّلَاثَةِ تَحْتَ سَطْحِ الْمَاءِ، وَالَّذِي يُؤَدِّي إِلَى رَدْهَةٍ مُمَهَّدَةٍ حَتَّى بَلَغَ أَكْبَرَ وَأَلْطَفَ حُجْرَةٍ رَآهَا جيري فِي حَيَاتِهِ؛ فَشَهَقَ فِي ذُهُولٍ. لَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِهِ سِوَى أَنْ يَشْهَقَ فِي ذُهُولٍ، فَقَدِ احْتَبَسَتِ الْكَلِمَاتُ فِي حَلْقِهِ. فَهَا هُوَ كَانَ يَقِفُ فِي تِلْكَ الْغُرْفَةِ الرَّائِعَةِ فَوْقَ سَطْحِ الْمَاءِ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ وَاثِقًا لِلْغَايَةِ مِنْ عَدَمِ وُجُودِ غُرْفَةٍ! وَبَدَا فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ.

فَبَرِقَتْ عَيْنَا بادي وَقَالَ: «حَسَنًا. مَا رَأْيُكَ؟»

فَرَدَّ عَلَيْهِ جيري قَائِلًا: «أَنَا ... أَنَا ... أَظُنُّهَا رَائِعَةً، رَائِعَةً بِحَقٍّ! وَلَكِنِّي لَا أَفْهَمُ الْبَتَّةَ يَا ابْنَ الْعَمِّ بادي.» ثُمَّ سَأَلَهُ، وَقَدْ بَدَا عَلَيْهِ الْغَبَاءُ الَّذِي شَعَرَ بِهِ حِينَ سَأَلَ: «أَ... أَ... أَيْنَ كَوْمَةُ الطِّينِ الْكَبِيرَةُ الَّتِي سَاعَدْتُكَ فِي صُنْعِهَا فِي الْمُنْتَصَفِ؟»

فَأَجَابَهُ بادي: «تَخَلَّصْتُ مِنْهَا كُلِّهَا؛ لِذَا كَانَ الْمَاءُ مُتَعَكِّرًا لِلْغَايَةِ.»

فَأَلَحَّ جيري بِالسُّؤَالِ: «وَلَكِنْ لِمَاذَا صَنَعْتَهَا مِنَ الْأَصْلِ؟»

فَأَجَابَهُ بادي: «لِأَنَّهُ لَا بُدَّ لِي مِنْ شَيْءٍ أَضَعُ عَلَيْهِ الْعِصِيَّ أَثْنَاءَ بِنَائِيَ الْجُدْرَانَ بِالطَّبْعِ. فَعِنْدَمَا رَبَطْتُهَا مِنْ أَعْلَى لِتَصْنَعَ سَقْفًا لَمْ تَعُدْ بِحَاجَةٍ إِلَى دِعَامَةٍ، فَتَخَلَّصْتُ مِنْهَا لِكَيْ أَبْنِيَ هَذِهِ الْحُجْرَةَ. فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ السَّبِيلَ الْوَحِيدَ لِبِنَاءِ مِثْلِ تِلْكَ الْحُجْرَةِ الْكَبِيرَةِ؛ أَرَى أَنَّكَ لَا تَعْرِفُ الْكَثِيرَ عَنْ بِنَاءِ الْبُيُوتِ يَا ابْنَ الْعَمِّ جيري.»

فَأَقَرَّ جيري بِذَلِكَ بِحُزْنٍ قَائِلًا: «أَخْشَى أَنْ تَكُونَ عَلَى حَقٍّ.»

الفصل الثالث عشر

الْمَخْزَنُ الْعَجِيبُ

كَانَ الْجَمِيعُ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْقُنْدُس بادي يَجْمَعُ مَخْزُونَ الشِّتَاءِ مِنَ الطَّعَامِ، وَكُلُّهُمْ رَأَوْهُ طَعَامًا عَجِيبًا. الْجَمِيعُ عَدَا بريكلي بوركي؛ فَهُوَ يُحِبُّ الطَّعَامَ ذَاتَهُ، وَلَكِنَّهُ لَا يُخَزِّنُهُ أَبَدًا، بَلْ يَخْرُجُ لِإِحْضَارِهِ مَتَى أَرَادَ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ صَيْفًا أَمْ شِتَاءً. فَمَا هُوَ ذَلِكَ الطَّعَامُ؟ إِنَّهُ لِحَاءُ الْأَشْجَارِ بِالتَّأْكِيدِ. نَعَمْ، لِحَاءُ الْأَشْجَارِ لَا أَكْثَرَ — لِحَاءُ بَعْضِ أَنْوَاعِ الْأَشْجَارِ.

فَبريكلي بوركي يُمْكِنُهُ تَسَلُّقُ الْأَشْجَارِ وَأَكْلُ اللِّحَاءِ مِنْهَا وَهُوَ مُتَشَبِّثٌ بِالْأَشْجَارِ، وَلَكِنَّ الْقُنْدُس بادي لَا يُمْكِنُهُ تَسَلُّقُهَا. وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ الِاكْتِفَاءُ بِأَكْلِ لِحَاءِ الْأَشْجَارِ الَّذِي يَسْتَطِيعُ بُلُوغَهُ مِنْ عَلَى الْأَرْضِ، فَسَيَحْتَاجُ أَشْجَارًا كَثِيرَةً جِدًّا لِيَأْكُلَ حَتَّى يَشْبَعَ، وَسُرْعَانَ مَا سَيُتْلِفُ الْغَابَةَ الْخَضْرَاءَ. فَكَمَا تَعْلَمُونَ، إِنَّ لِحَاءَ الْأَشْجَارِ عِنْدَمَا يُنْزَعُ مِنْ حَوْلِ الشَّجَرَةِ، تَمُوتُ؛ فَكُلُّ مَا تَسْتَمِدُّهُ الشَّجَرَةُ مِنَ الْأَرْضِ كَيْ تَنْمُوَ وَتَظَلَّ حَيَّةً يَحْمِلُهُ إِلَيْهَا سَائِلُ النُّسْغِ مِنَ الْجُذُورِ، وَالنُّسْغُ لَا يُمْكِنُهُ الصُّعُودُ عَبْرَ جُذُوعِ الْأَشْجَارِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى أَغْصَانِهَا بَعْدَ نَزْعِ اللِّحَاءِ؛ لِأَنَّهُ يَنْتَقِلُ عَبْرَ لِحَاءِ الشَّجَرَةِ. فَعِنْدَمَا يُنْزَعُ اللِّحَاءُ مِنْ حَوْلِ جِذْعِ الشَّجَرَةِ، تَمُوتُ جُوعًا.

وَالْقُنْدُس بادي يُحِبُّ الْغَابَةَ الْخَضْرَاءَ مِثْلَمَا نُحِبُّهَا جَمِيعًا، وَرُبَّمَا أَكْثَرَ قَلِيلًا؛ فَهِيَ مَوْطِنُهُ. وَإِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ بادي لَمْ يَكُنْ يَوْمًا مُؤْذِيًا؛ لِذَا فَهُوَ يُقَطِّعُ الشَّجَرَةَ حَتَّى يَأْكُلَ لِحَاءَهَا كُلَّهُ عِوَضًا عَنْ أَنْ يَقْتُلَ أَشْجَارًا كَثِيرَةً مِنْ أَجْلِ الْحُصُولِ عَلَى قَدْرٍ ضَئِيلٍ

مِنَ اللِّحَاءِ، وَهُوَ مَا كَانَ سَيَفْعَلَهُ إِنْ كَانَ كَسُولًا. وَلَكِنَّهُ لَيْسَ كَسُولًا عَلَى الْإِطْلَاقِ. وَإِنَّ أَحَبَّ أَنْوَاعِ اللِّحَاءِ إِلَيْهِ هُوَ لِحَاءُ أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ. وَإِذَا لَمْ يَسْتَطِعِ الْحُصُولَ عَلَيْهِ، يَأْكُلُ لِحَاءَ أَشْجَارِ الْحَوْرِ، وَجَارِ الْمَاءِ، وَالصَّفْصَافِ، وَحَتَّى أَشْجَارِ الْبَتُولَا. وَلَكِنَّهُ يُحِبُّ لِحَاءَ أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ كَثِيرًا، حَتَّى إِنَّهُ يَبْذُلُ جُهْدًا كَبِيرًا فِي سَبِيلِ الْحُصُولِ عَلَيْهِ. قَدْ يَكُونُ لِأَنَّهُ الْأَحْلَى مَذَاقًا لَهُ؛ إِذْ إِنَّهُ يَبْذُلُ جُهْدًا كَبِيرًا حَقًّا لِكَيْ يَحْصُلَ عَلَيْهِ.

وَقَدْ كَانَ ثَمَّةَ بَعْضُ أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ عَلَى حَافَةِ الْبِرْكَةِ الَّتِي صَنَعَهَا بادي فِي الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ. فَقَطَعَهَا مِثْلَمَا قَطَعَ الْأَشْجَارَ لِبِنَاءِ السَّدِّ. وَبِمُجَرَّدِ أَنْ تَسْقُطَ الشَّجَرَةُ، كَانَ يُقَطِّعُهَا إِلَى أَجْزَاءٍ قَصِيرَةٍ، وَيَسْبَحُ بِهَا إِلَى حَيْثُ كَانَ الْمَاءُ عَمِيقًا، بِالْقُرْبِ مِنْ بَيْتِهِ الْجَدِيدِ. فَكَانَ يَأْخُذُهَا وَاحِدَةً تِلْوَ الْأُخْرَى، وَيَحْمِلُ أُولَاهَا إِلَى الْقَاعِ؛ حَيْثُ كَانَ يَدْفَعُ بِهَا فِي الطِّينِ بِمَا يَكْفِي لِتَثْبِيتِهَا. ثُمَّ سُرْعَانَ مَا يَجْلِبُ الْمَزِيدَ لِيَرُصَّهُ فَوْقَ الْأُولَى. فَأَخَذَتِ الْكَوْمَةُ تَنْمُو وَتَنْمُو.

فَرَاحَ فَأْرُ الْمِسْكِ جيري وَالْأَرْنَبُ بيتر وَالرَّاكُونُ بوبي، وَغَيْرُهُمْ مِنْ سُكَّانِ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ الصِّغَارِ يُرَاقِبُونَهُ بِاهْتِمَامٍ وَفُضُولٍ شَدِيدَيْنِ؛ فَقَدْ عَجَزُوا عَنِ اسْتِيعَابِ مَا يَفْعَلُهُ؛ فَقَدْ بَدَا كَأَنَّهُ يَبْنِي قَاعِدَةَ بَيْتٍ جَدِيدٍ.

فَسَأَلَ بيتر، عِنْدَمَا لَمْ يَعُدْ فِي إِمْكَانِهِ السُّكُوتُ: «مَاذَا يَفْعَلُ بادي يَا جيري؟»

فَأَجَابَهُ جيري: «لَا أَعْلَمُ بِالضَّبْطِ. لَقَدْ قَالَ إِنَّهُ سَيَجْمَعُ خَزِينًا مِنَ الطَّعَامِ لِلشِّتَاءِ، كَمَا أَخْبَرْتُكَ، وَأَظُنُّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ الْآنَ. وَلَكِنِّي لَا أَفْهَمُ لِمَ يَأْخُذُهُ كُلَّهُ إِلَى الْبِرْكَةِ. أَظُنُّنِي سَأَذْهَبُ لِأَسْأَلَهُ.»

فَرَجَاهُ بيتر، الَّذِي بَلَغَ مِنْهُ الْفُضُولُ مَبْلَغًا أَعْجَزَهُ عَنِ الْجُلُوسِ سَاكِنًا، قَائِلًا: «اذْهَبْ ثُمَّ ائْتِ لِإِخْبَارِنَا.»

فَسَبَحَ جيري إِلَى حَيْثُ كَانَ بادي مُنْهَمِكًا فِي الْعَمَلِ، وَسَأَلَهُ: «هَلْ هَذَا هُوَ مَخْزُونُكَ مِنَ الطَّعَامِ يَا ابْنَ الْعَمِّ بادي؟»

فَأَجَابَهُ بادي، رَيْثَمَا زَحَفَ إِلَى جَانِبِ بَيْتِهِ لِيَسْتَرِيحَ: «نَعَمْ، نَعَمْ، هَذَا هُوَ مَخْزُونِي مِنَ الطَّعَامِ. أَلَيْسَ رَائِعًا؟»

فَأَجَابَهُ جيري، مُحَاوِلًا أَنْ يَكُونَ مُهَذَّبًا: «أَظُنُّ ذَلِكَ، وَإِنْ كُنْتُ أُفَضِّلُ جُذُورَ الزَّنْبَقِ وَالْمَحَارَ. وَلَكِنْ مَاذَا سَتَفْعَلُ بِهِ؟ أَيْنَ مَخْزَنُكَ؟»

فَأَجَابَهُ بادي قَائِلًا: «هَذِهِ الْبِرْكَةُ هِيَ مَخْزَنِي. سَأَضَعُ كَوْمَةً كَبِيرَةً هُنَا بِالْقُرْبِ مِنْ بَيْتِي، وَسَيُبْقِيهَا الْمَاءُ لَذِيذَةً طَازَجَةً طَوَالَ فَصْلِ الشِّتَاءِ. وَعِنْدَمَا تَتَجَمَّدُ الْبِرْكَةُ، مَا عَلَيَّ إِلَّا أَنْ أَنْزَلِقَ إِلَى الْخَارِجِ مِنْ أَحَدِ مَدَاخِلِي بِالْأَسْفَلِ عِنْدَ قَاعِ الْبِرْكَةِ، وَأَسْبَحَ إِلَى هُنَا لِأَجْلِبَ عَصًا آكُلُهَا حَتَّى أَشْبَعَ. أَلَا تَرَاهُ مُلَائِمًا؟»

الفصل الرابع عشر

آثَارٌ فِي الطِّينِ

ذَاتَ صَبَاحٍ بَاكِرٍ سَمِعَ الْقُنْدُسُ بادي طَائِرَ السِّنْدِيَانِ سامي يُحْدِثُ جَلَبَةً شَدِيدَةً فِي إِحْدَى أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ عَلَى حَافَةِ الْبِرْكَةِ الَّتِي صَنَعَهَا بادي فِي الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ. لَمْ يَكُنْ فِي اسْتِطَاعَةِ بادي النَّظَرُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي بَيْتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ بِبَيْتِهِ نَافِذَةٌ، وَلَكِنْ كَانَ فِي اسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يَسْمَعَ؛ فَعَقَدَ حَاجِبَيْهِ مُفَكِّرًا.

فَقَالَ بادي فِي نَفْسِهِ، وَهِيَ عَادَتُهُ؛ إِذْ كَانَ يَقْضِي أَكْثَرَ وَقْتِهِ وَحِيدًا: «يَبْدُو لِي أَنَّ سامي شَدِيدُ الْحَمَاسِ الْيَوْمَ؛ فَعِنْدَمَا يَصْرُخُ هَكَذَا، عَادَةً مَا يَكُونُ يُحَاوِلُ فِعْلَ شَيْئَيْنِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ — كَإِثَارَةِ الْمَتَاعِبِ لِأَحَدٍ وَإِبْقَاءِ آخَرَ بِمَنْأًى عَنْهَا — وَعِنْدَمَا تُفَكِّرُ فِي الْأَمْرِ، تَجِدُهُ غَرِيبًا إِلَى حَدٍّ مَا؛ فَهُوَ يُثْبِتُ أَنَّهُ لَيْسَ شِرِّيرًا تَمَامًا، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْعَسِيرِ أَنْ يُوصَفَ بِالطِّيبَةِ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ. أَظُنُّ، حَسَبَ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَصْوَاتٍ، أَنَّ سامي كَشَفَ الثَّعْلَبَ ريدي وَهُوَ يُحَاوِلُ مُبَاغَتَةَ أَحَدِهِمْ هُنَاكَ حَيْثُ تَنْمُو أَشْجَارُ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ الْمُجَاوِرَةُ لِبَيْتِي. وَريدي يَخْشَانِي، وَلَكِنْ أَظُنُّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الْأَرْنَبَ بيتر يَتَرَدَّدُ عَلَى هَذِهِ الْأَنْحَاءِ كَثِيرًا فِي الْآوِنَةِ الْأَخِيرَةِ لِيُشَاهِدَنِي أَثْنَاءَ عَمَلِي، وَيَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ يَتَمَكَّنُ مِنَ الْإِمْسَاكِ بِبيتر. يَنْبَغِي أَنْ أَهْمِسَ فِي إِحْدَى أُذُنَيْ بيتر الطَّوِيلَتَيْنِ وَأُخْبِرَهُ أَنْ يَأْخُذَ حَذَرَهُ.»

وَبَعْدَ بُرْهَةٍ رَاحَ صَوْتُ سامي يَبْتَعِدُ وَيَبْتَعِدُ فِي الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ. وَأَخِيرًا لَمْ يَعُدْ يَسْمَعُهُ مُطْلَقًا. فَفَكَّرَ بادي قَائِلًا: «أَيًّا مَنْ كَانَ هُنَاكَ فَقَدْ ذَهَبَ الْآنَ، وَتَبِعَهُ سامي لِكَيْ يَغِيظَهُ فَحَسْبُ.» كَانَ بادي آنَئِذٍ مَشْغُولًا جِدًّا فِي صُنْعِ فِرَاشِهِ؛ فَقَدْ كَانَ الْقُنْدُسُ بادي أَنِيقًا لِلْغَايَةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِفِرَاشِهِ؛ فَهُوَ يَصْنَعُهُ مِنْ شَظَايَا الْخَشَبِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي يَنْتَزِعُهَا

بِأَسْنَانِهِ الْقَاطِعَةِ الرَّائِعَةِ؛ فَبِذَلِكَ يَصْنَعُ الْفِرَاشَ الْأَكْثَرَ جَفَافًا. وَهُوَ يَتَطَلَّبُ الْكَثِيرَ مِنَ الصَّبْرِ وَالْعَمَلِ، وَلَكِنَّ الصَّبْرَ أَحَدُ أَوَائِلِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَتَعَلَّمُهَا الْقَنَادِسُ الصَّغِيرَةُ، أَمَّا الْعَمَلُ الْمُخْلَصُ الْمُتْقَنُ فَهُوَ أَحَدُ أَعْظَمِ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ فِي الْعَالَمِ، كَمَا اكْتَشَفَ بادي بِنَفْسِهِ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ. وَلِهَذَا ظَلَّ عَاكِفًا عَلَى صُنْعِ فِرَاشِهِ بَعْضَ الْوَقْتِ بَعْدَمَا حَلَّ السُّكُونُ عَلَى أَرْجَاءِ الْمَكَانِ خَارِجَ بَيْتِهِ.

وَأَخِيرًا قَرَّرَ بادي أَنْ يَذْهَبَ إِلَى أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ وَيَتَفَقَّدَهَا؛ لِكَيْ يُحَدِّدَ أَيُّهَا سَيُقَطِّعُهُ اللَّيْلَةَ الْقَادِمَةَ. فَانْزَلَقَ إِلَى أَسْفَلِ إِحْدَى رَدَهَاتِهِ الطَّوِيلَةِ، خَارِجًا مِنَ الْبَابِ عِنْدَ قَاعِ الْبِرْكَةِ، ثُمَّ سَبَحَ إِلَى السَّطْحِ؛ حَيْثُ طَفَا عَلَى الْمَاءِ بِضْعَ دَقَائِقَ مُطِلًّا مِنْهُ بِرَأْسِهِ فَقَطْ. وَطَوَالَ الْوَقْتِ انْشَغَلَتْ عَيْنَاهُ وَأَنْفُهُ وَأُذُنَاهُ بِالنَّظَرِ وَالشَّمِّ وَالسَّمْعِ بَحْثًا عَنْ أَيِّ شَيْءٍ يُنْذِرُ بِالْخَطَرِ. وَلَكِنَّ السُّكُونَ سَادَ أَرْجَاءَ الْمَكَانِ. وَعِنْدَمَا تَأَكَّدَ مِنْ أَنَّ الْوَضْعَ آمِنٌ، سَبَحَ إِلَى حَيْثُ نَمَتْ أَشْجَارُ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ، وَسَارَ مُتَهَادِيًا عَلَى شَاطِئِ الْبِرْكَةِ.

ثُمَّ نَظَرَ يَمِينًا وَيَسَارًا. ثُمَّ نَظَرَ إِلَى قِمَمِ الْأَشْجَارِ، وَأَعْلَى التِّلَالِ، وَلَكِنَّهُ نَظَرَ أَكْثَرَ إِلَى الْأَرْضِ. نَعَمْ، رَاحَ بادي يَتَفَحَّصُ الْأَرْضَ؛ فَهُوَ لَمْ يَنْسَ الْجَلَبَةَ الَّتِي أَثَارَهَا طَائِرُ السِّنْدِيَانِ سامي، وَكَانَ يُحَاوِلُ مَعْرِفَةَ سَبَبِهَا. فِي الْبِدَايَةِ لَمْ يَجِدْ شَيْئًا خَارِجًا عَنِ الْمَأْلُوفِ، وَلَكِنَّهُ لَاحَظَ بَعْدَ حِينٍ رُقْعَةً صَغِيرَةً مُبْتَلَّةً، وَفِي مُنْتَصَفِهَا كَانَ شَيْءٌ اتَّسَعَتْ لَهُ عَيْنَاهُ؛ كَانَ أَثَرَ قَدَمٍ! فَقَدْ دَاسَ أَحَدُهُمْ فِي الطِّينِ بِتَهَاوُنٍ.

هَتَفَ بادي مُتَعَجِّبًا، وَقَدِ انْتَصَبَ الشَّعْرُ عَلَى ظَهْرِهِ قَلِيلًا، وَاقْشَعَرَّ بَدَنُهُ لِدَقِيقَةٍ؛ فَقَدْ كَانَ أَثَرُ الْقَدَمِ يُشْبِهُ آثَارَ أَقْدَامِ الثَّعْلَبِ ريدي كَثِيرًا، وَإِنْ كَانَ أَكْبَرَ.

فَهَتَفَ مُتَعَجِّبًا مَرَّةً أُخْرَى، وَأَرْدَفَ: «مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ تِلْكَ آثَارُ أَقْدَامِ الْقَيُّوطِ الْعَجُوزِ! أَرَى أَنَّنِي لَا بُدَّ أَنْ آخُذَ حَذَرِي أَكْثَرَ مِمَّا ظَنَنْتُ. حَسَنًا يَا سَيِّدِي الْقَيُّوطَ؛ الْآنَ وَقَدْ صِرْتُ أَعْرِفُ أَنَّكَ قَرِيبٌ مِنْ هُنَا، عَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ أَذْكَى مِمَّا أَتَخَيَّلُ حَتَّى تَتَمَكَّنَ مِنَ الْإِمْسَاكِ بِي. قَطْعًا سَتَعُودُ لِتَبْحَثَ عَنِّي اللَّيْلَةَ، فَأَظُنُّنِي سَأَفْرَغُ مِنْ تَقْطِيعِ الشَّجَرَةِ الْآنَ فِي وَضَحِ النَّهَارِ.»

الفصل الخامس عشر

زِيارَةُ سامي

كَانَ الْقُنْدُسُ بادي مُنْهَمِكًا فِي الْعَمَلِ. فَكَانَ قَدْ فَرَغَ لِتَوِّهِ مِنْ تَقْطِيعِ شَجَرَةِ حُورٍ رَجْرَاجٍ كَبِيرَةٍ نِسْبِيًّا، وَكَانَ حِينَهَا يُقَطِّعُهَا بِأَسْنَانِهِ إِلَى أَجْزَاءٍ قَصِيرَةٍ؛ لِيَضَعَهَا فِي كَوْمَةِ الطَّعَامِ الْمَوْجُودَةِ لَدَيْهِ فِي الْبِرْكَةِ. وَأَثْنَاءَ عَمَلِهِ كَانَ مَشْغُولَ الْفِكْرِ بِمَسْأَلَةِ آثَارِ أَقْدَامِ الْقَيُّوطِ الْعَجُوزِ الَّتِي وَجَدَهَا وَسْطَ بُقْعَةِ طِينٍ صَغِيرَةٍ؛ إِذْ عَرَفَ أَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْقَيُّوطَ الْعَجُوزَ اكْتَشَفَ بِرْكَتَهُ، وَمِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجُولَ فِي الْمَكَانِ؛ أَمَلًا فِي الْإِيقَاعِ بِبادي عَلَى غَفْلَةٍ مِنْهُ. كَانَ بادي وَاثِقًا مِنْ ذَلِكَ تَمَامَ الثِّقَةِ؛ وَمِنْ ثَمَّ شَرَعَ فِي جَمْعِ مَخْزُونِ طَعَامِهِ أَثْنَاءَ النَّهَارِ؛ فَهُوَ عَادَةً يَعْمَلُ لَيْلًا، وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الْقَيُّوطَ الْعَجُوزَ عَلَى عِلْمٍ بِذَلِكَ.

فَفَكَّرَ بادي فِي نَفْسِهِ قَائِلًا: «سَيُحَاوِلُ الْإِمْسَاكَ بِي لَيْلًا؛ لِذَا سَأُنْهِي الْعَمَلَ الَّذِي أَقُومُ بِهِ عَلَى الْأَرْضِ الْآنَ وَأَخْدَعُهُ.»

بَدَأَتِ الشَّجَرَةُ الَّتِي كَانَ يُقَطِّعُهَا تَتَأَرْجَحُ وَتَنْكَسِرُ، فَقَضَمَ بادي قَضْمَةً كَبِيرَةً أُخْرَى، ثُمَّ أَسْرَعَ بِالْهُرُوبِ إِلَى مَكَانٍ آمِنٍ، بَيْنَمَا سَقَطَتِ الشَّجَرَةُ مُحْدِثَةً دَوِيًّا عَالِيًا.

فَتَعَالَى صَوْتُ صِيَاحٍ مِنْ خَلْفِ بادي قَائِلًا: «لِصٌّ! لِصٌّ! لِصٌّ!»

فَقَالَ بادي: «مَرْحَبًا يَا سامي! أَرَى أَنَّ مِزَاجَكَ سَيِّئٌ كَالْمُعْتَادِ هَذَا الصَّبَاحَ. أَلَا تَرْغَبُ فِي الْجُلُوسِ فَوْقَ تِلْكَ الشَّجَرَةِ رَيْثَمَا أُقَطِّعُهَا؟»

فَاسْوَدَّ وَجْهُ سامي غَضَبًا؛ إِذْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ بادي يَسْخَرُ مِنْهُ. فَكَمَا تَذْكُرُونَ، مُنْذُ بِضْعَةِ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ كَانَ اهْتِمَامُهُ مُنْصَبًّا تَمَامًا عَلَى سَبِّ بادي، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَلْحَظْ أَنَّ بادي

كَانَ آخِذًا فِي تَقْطِيعِ الشَّجَرَةِ ذَاتِهَا حَيْثُ كَانَ سامي جَالِسًا، فَانْتَابَهُ فَزَعٌ شَدِيدٌ عِنْدَمَا سَقَطَتْ.

فَصَاحَ بِهِ سامي قَائِلًا: «تَظُنُّ نَفْسَكَ بَالِغَ الذَّكَاءِ يَا سَيِّدِي الْقُنْدُسَ، وَلَكِنَّكَ سَتُغَيِّرُ رَأْيَكَ يَوْمًا! لَوْ بَلَغَكَ مَا عَرَفْتُهُ، مَا فَرِحْتَ بِنَفْسِكَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ.»

فَسَأَلَهُ بادي، مُتَظَاهِرًا بِالْقَلَقِ الشَّدِيدِ: «وَمَاذَا عَرَفْتَ؟»

فَرَدَّ عَلَيْهِ طَائِرُ السِّنْدِيَانِ سامي قَائِلًا: «لَنْ أُخْبِرَكَ مَا عَرَفْتُ. سَتَعْرِفُ بِنَفْسِكَ عَمَّا قَرِيبٍ. وَعِنْدَمَا تَعْرِفُ، لَنْ تَسْرِقَ شَجَرَةً مِنْ غَابَتِنَا الْخَضْرَاءِ ثَانِيَةً؛ فَأَحَدُهُمْ سَيُمْسِكُ بِكَ، وَهُوَ لَيْسَ ابْنَ الْمُزَارِعِ براون!»

فَتَظَاهَرَ بادي بِالْخَوْفِ الشَّدِيدِ، وَرَاحَ يَسْأَلُهُ رَاجِيًا: «أُوهْ، مَنْ هُوَ؟ أَخْبِرْنِي أَرْجُوكَ يَا سَيِّدِي طَائِرَ السِّنْدِيَانِ.»

شَعَرَ سامي بِأَهَمِّيَّتِهِ الْكَبِيرَةِ لَدَى مُنَادَاتِهِ بِـ «سَيِّدِي طَائِرَ السِّنْدِيَانِ»؛ فَالْجَمِيعُ تَقْرِيبًا عَدَا بادي كَانُوا يُنَادُونَهُ سامي. فَنَفَشَ رِيشَهُ مُحَاوِلًا أَنْ يَبْدُوَ مُهِمًّا مِثْلَمَا تَرَاءَى لَهُ، وَبَرَقَتْ عَيْنَاهُ فِي نَشْوَةٍ. لَقَدْ نَجَحَ فِي إِخَافَةِ الْقُنْدُسِ بادي حَقًّا. أَوْ عَلَى الْأَقَلِّ كَانَ ذَلِكَ مَا ظَنَّهُ.

فَرَدَّ عَلَيْهِ قَائِلًا: «كَلَّا يَا سَيِّدِي، لَنْ أُخْبِرَكَ. وَلَكِنِّي لَا أَوَدُّ أَنْ أَكُونَ مَكَانَكَ أَبَدًا! فَهُنَاكَ مَنْ هُوَ أَذْكَى مِنْكَ وَسَيُمْسِكُ بِكَ، وَعِنْدَمَا يَنْتَهِي مِنَ الْتِهَامِكَ لَنْ يَتَبَقَّى مِنْكَ سِوَى بَعْضِ الْعِظَامِ؛ نَعَمْ يَا سَيِّدِي، لَا شَيْءَ سِوَى بَعْضِ الْعِظَامِ!»

فَهَتَفَ بادي قَائِلًا: «أُوهْ يَا سَيِّدِي طَائِرَ السِّنْدِيَانِ، يَا لَهَا مِنْ أَنْبَاءٍ مُفْزِعَةٍ! مَاذَا عَلَيَّ أَنْ أَفْعَلَ؟» وَطَوَالَ ذَلِكَ الْوَقْتِ مَا بَرِحَ يُقَطِّعُ الشَّجَرَةَ.

فَأَجَابَهُ سامي، وَهُوَ يَبْتَسِمُ فِي خُبْثٍ مِمَّا أَصَابَ بادي مِنْ خَوْفٍ: «لَيْسَ ثَمَّةَ مَا يُمْكِنُكَ فِعْلُهُ. لَيْسَ ثَمَّةَ مَا يُمْكِنُكَ فِعْلُهُ سِوَى أَنْ تَعُودَ أَدْرَاجَكَ إِلَى الشَّمَالِ الَّذِي جِئْتَ مِنْهُ. تَظُنُّ نَفْسَكَ بَالِغَ الذَّكَاءِ، وَلَكِنْ ...»

وَلَمْ يُكْمِلْ سامي حَدِيثَهُ. ثُمَّ، طَرَاخْ! سَقَطَتِ الشَّجَرَةُ الَّتِي كَانَ بادي يُقَطِّعُهَا وَاصْطَدَمَتْ قِمَّتُهَا بِشَجَرَةٍ جَارِ الْمَاءِ حَيْثُ كَانَ سامي جَالِسًا. فَبَسَطَ سامي جَنَاحَيْهِ وَحَلَّقَ مُبْتَعِدًا فِي اللَّحْظَةِ الْأَخِيرَةِ، صَارِخًا: «أُوهْ! أُوهْ! النَّجْدَةَ!»

فَجَلَسَ بادي وَأَخَذَ يَضْحَكُ حَتَّى آلَمَهُ الضَّحِكُ، ثُمَّ قَالَ: «عُدْ لِزِيَارَتِي يَوْمًا يَا سامي! وَعِنْدَمَا تَأْتِي، أَرْجُو أَنْ تَجْلِبَ لِي أَنْبَاءً حَقِيقِيَّةً. أَنَا أَعْرِفُ أَمْرَ الْقَيُّوطِ الْعَجُوزِ. فَلْتُخْبِرْهُ نِيَابَةً عَنِّي أَنَّهُ عِنْدَمَا يُخَطِّطُ لِلْإِمْسَاكِ بِأَحَدٍ عَلَيْهِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ تَرْكِ آثَارِ أَقْدَامٍ تَكْشِفُ أَمْرَهُ.»

فَلَمْ يَرُدَّ سامي، وَإِنَّمَا تَسَلَّلَ عَبْرَ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ، وَقَدْ بَدَا عَلَيْهِ الشُّعُورُ بِالْحُمْقِ.

الفصل السادس عشر

الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ الدَّاهِيَةُ

إِنَّ الْقَيُّوطَ لَدَاهِيَةٌ،
وَذَكَاؤُهُ حَادٌّ وَالْكَسْبُ لَهُ غَايَةٌ.

لَا شَيْءَ فِي الْعَالَمِ أَصْدَقُ مِنْ ذَلِكَ؛ فَالْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ هُوَ أَكْثَرُ سُكَّانِ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ وَالْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ الصِّغَارِ دَهَاءً. فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ شِدَّةِ ذَكَاءِ الْجَدَّةِ ثعلبة الْعَجُوزِ، فَإِنَّهُ لَا يُضَاهِي ذَكَاءَ الْقَيُّوطِ الْعَجُوزِ. وَإِنْ أَرَدْتَ خِدَاعَهُ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَسْتَيْقِظَ فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، ثُمَّ إِنَّهُ مِنَ الْأَرْجَحِ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ ضَحِيَّةَ الْخُدْعَةِ لَا هُوَ. فَلَا يُوجَدُ الْكَثِيرُ مِمَّا يَجْرِي حَوْلَهُ دُونَ عِلْمِهِ. وَلَكِنَّهُ يَغْفُلُ عَنْ أَمْرٍ مِنْ حِينٍ لِآخَرَ. وَقَدْ كَانَ مَجِيءُ الْقُنْدُسِ بادي إِلَى الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ أَحَدَ تِلْكَ الْأُمُورِ؛ فَهُوَ لَمْ يَعْلَمْ شَيْئًا عَنْ بادي حَتَّى فَرَغَ مِنْ بِنَاءِ سَدِّهِ وَبَيْتِهِ، وَرَاحَ يُقَطِّعُ الْأَشْجَارَ الَّتِي سَتُمِدُّهُ بِمَخْزُونِ الطَّعَامِ فِي الشِّتَاءِ.

وَمَا حَدَثَ كَانَ الْآتِي: عِنْدَمَا نَمَى إِلَى عِلْمِ النَّسَمَاتِ الرَّقِيقَةِ الْمَرِحَةِ لِلرِّيَاحِ الْغَرْبِيَّةِ الْعَجُوزِ مَا يَحْدُثُ فِي الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ، وَأَسْرَعَتْ تَنْشُرُ الْأَنْبَاءَ فِي أَنْحَاءِ الْغَابَةِ وَمُرُوجِهَا الْخَضْرَاءِ، كَعَادَتِهَا، بَذَلَتْ قُصَارَى جُهْدِهَا لِتَتَجَنَّبَ أَنْ تَبْدُرَ مِنْهَا وَلَوْ إِشَارَةً عَنِ الْأَمْرِ إِلَى الْقَيُّوطِ الْعَجُوزِ؛ لِأَنَّهَا خَشِيَتْ أَنْ يَتَسَبَّبَ فِي الْمَتَاعِبِ، وَرُبَّمَا يَدْفَعُ بادي إِلَى الرَّحِيلِ؛ فَقَدْ كَانَ الْمَكَانُ الَّذِي اخْتَارَهُ بادي لِبِنَاءِ السَّدِّ مُتَوَغِّلًا فِي جَوْفِ الْغَابَةِ إِلَى حَيْثُ يَنْدُرُ أَنْ يَذْهَبَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ؛ لِذَا لَمْ يَعْلَمْ شَيْئًا عَنْ بادي كَمَا لَمْ يَعْلَمْ عَنْهُ بادي شَيْئًا لِفَتْرَةٍ.

وَلَكِنْ بَعْدَ حِينٍ لَاحَظَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ أَنَّ سُكَّانَ الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ الصِّغَارَ لَمْ يَعُودُوا مُتَوَاجِدِينَ بِالْقَدْرِ الْمُعْتَادِ، وَبَدَا أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ سِرًّا؛ فَذَكَرَ الْأَمْرَ إِلَى صَدِيقِهِ، الْغُرَيْرِ حفار.

كَانَ حفار شَدِيدَ الانْشِغَالِ بِشُئُونِهِ حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَلْحَظْ شَيْئًا خَارِجًا عَنِ الْمَأْلُوفِ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا ذَكَرَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ ذَلِكَ الْأَمْرَ تَذَكَّرَ أَنَّ الْغُرَابَ بلاكي كَانَ يَتَوَجَّهُ إِلَى الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ كُلَّ صَبَاحٍ. وَقَدْ أَبْصَرَ طَائِرَ السِّنْدِيَانِ سامي عِدَّةَ مَرَّاتٍ مُحَلِّقًا فِي الِاتِّجَاهِ ذَاتِهِ وَكَأَنَّهُ يَتَعَجَّلُ الْوُصُولَ إِلَى مَكَانٍ مَا.

فَابْتَسَمَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ وَقَالَ: «هَذَا كُلُّ مَا أَحْتَاجُ مَعْرِفَتَهُ يَا صَدِيقِي حفار؛ فَعِنْدَمَا يَزُورُ الْغُرَابُ بلاكي وَسامي مَكَانًا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، يَكُونُ ثَمَّةَ أَمْرٌ مُثِيرٌ لِلِاهْتِمَامِ يَجْرِي هُنَاكَ. أَظُنُّنِي سَأَتَجَوَّلُ فِي أَنْحَاءِ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ وَأَتَفَقَّدُ الْمَكَانَ.»

ثُمَّ انْطَلَقَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ فِي طَرِيقِهِ. وَلَكِنَّهُ كَانَ أَمْكَرَ وَأَدْهَى مِنْ أَنْ يَتَّجِهَ إِلَى الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ مُبَاشَرَةً. فَتَظَاهَرَ بِأَنَّهُ يَصْطَادُ عِنْدَ الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ كَعَادَتِهِ، آخِذًا فِي الِاقْتِرَابِ طَوَالَ الْوَقْتِ مِنَ الْغَابَةِ. وَعِنْدَمَا بَلَغَ أَطْرَافَهَا، تَسَلَّلَ بَيْنَ الْأَشْجَارِ، وَعِنْدَمَا تَأَكَّدَ أَنَّهُ مِنَ الْمُسْتَبْعَدِ أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ، بَدَأَ يَرْكُضُ هُنَا وَهُنَاكَ وَأَنْفُهُ قَرِيبٌ مِنَ الْأَرْضِ.

وَبَعْدَ بُرْهَةٍ هَتَفَ: «هَاهْ! الثَّعْلَبُ ريدي كَانَ هُنَا فِي الْآوِنَةِ الْأَخِيرَةِ.»

وَسُرْعَانَ مَا وَجَدَ أَثَرًا آخَرَ. فَقَالَ: «إِذَنْ، فَقَدْ تَرَدَّدَ الْأَرْنَبُ بيتر عَلَى هَذَا الْمَكَانِ كَثِيرًا فِي الْآوِنَةِ الْأَخِيرَةِ، وَإِنَّ أَثَرَهُ يَسِيرُ فِي الِاتِّجَاهِ ذَاتِهِ كَأَثَرِ الثَّعْلَبِ ريدي. أَظُنُّ أَنَّنِي الْآنَ مَا عَلَيَّ سِوَى أَنْ أَتَقَفَّى أَثَرَ بيتر، وَهُوَ سَيُرْشِدُنِي إِلَى مَا أُرِيدُ مَعْرِفَتَهُ.»

فَتَقَفَّى الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ أَثَرَ بيتر، وَسُرْعَانَ مَا بَلَغَ بِرْكَةَ الْقُنْدُسِ بادي. فَقَالَ، إِذْ رَفَعَ عَيْنَيْهِ وَأَبْصَرَ بَيْتَ بادي: «هَاهْ! إِذَنْ هُنَاكَ وَافِدٌ جَدِيدٌ فِي الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ! طَالَمَا سَمِعْتُ أَنَّ الْقَنَادِسَ شَهِيَّةٌ جِدًّا. صِرْتُ أَشْعُرُ بِالْجُوعِ فِعْلًا.» وَبَدَأَ لُعَابُهُ يَسِيلُ، وَبَدَتْ فِي عَيْنَيْهِ الصَّفْرَاوَيْنِ نَظْرَةٌ شَرِسَةٌ جَائِعَةٌ.

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ رَآهُ طَائِرُ السِّنْدِيَانِ سامي وَرَاحَ يَصْرُخُ بِأَعْلَى صَوْتٍ حَتَّى يَسْمَعَهُ الْقُنْدُسُ بادي فِي بَيْتِهِ. فَعَلِمَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ أَنَّهُ لَا جَدْوَى مِنَ الْبَقَاءِ أَثْنَاءَ وُجُودِ سامي، فَأَلْقَى نَظْرَةً خَاطِفَةً عَلَى الْبِرْكَةِ وَعَرَفَ أَيْنَ يَأْتِي بادي إِلَى الْبَرِّ لِيَجْلِبَ طَعَامَهُ. ثُمَّ انْطَلَقَ عَائِدًا إِلَى الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ، مُلَوِّحًا بِقَبْضَتِهِ فِي وَجْهِ سامي، وَقَالَ: «إِذَنْ سَأَزُورُ هَذَا الْمَكَانَ فِي اللَّيْلِ وَأُفَاجِئُ السَّيِّدَ قندس أَثْنَاءَ عَمَلِهِ.»

إِلَّا أَنَّ الْقَيُّوطَ الْعَجُوزَ، رَغْمَ شِدَّةِ دَهَائِهِ، لَمْ يَلْحَظْ أَنَّهُ خَلَّفَ أَثَرَ قَدَمٍ فِي الطِّينِ.

الفصل السابع عشر

حَسْرَةُ الْقَيُّوطِ الْعَجُوزِ

تَمَدَّدَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ فِي الْبُقْعَةِ الَّتِي يُفَضِّلُ قَضَاءَ قَيْلُولَتِهِ فِيهَا عَلَى الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ. وَكَانَ يُفَكِّرُ فِيمَا اكْتَشَفَهُ ذَلِكَ الصَّبَاحَ فِي الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ؛ وَهُوَ أَنَّ الْقُنْدُسَ بادي يُقِيمُ هُنَاكَ. بَدَتْ لِلْقَيُّوطِ الْعَجُوزِ أَفْكَارٌ مُبْهِجَةٌ جِدًّا، وَإِنْ كَانَتْ فِي الْوَاقِعِ أَفْكَارًا بَغِيضَةً؛ فَقَدْ كَانَ يُفَكِّرُ فِي مَدَى سُهُولَةِ الْإِمْسَاكِ ببادي، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ وَجْبَةً شَهِيَّةً لِلْغَايَةِ. وَلَعِقَ فَاهَ عِنْدَمَا خَطَرَتْ تِلْكَ الْفِكْرَةُ عَلَى بَالِهِ.

وَفَكَّرَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ قَائِلًا: «هُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّنِي أَعْلَمُ بِوُجُودِهِ، بَلْ إِنِّي إِخَالُهُ لَا يَعْلَمُ بِوُجُودِي فِي الْجِوَارِ مِنَ الْأَسَاسِ، وَبِالطَّبْعِ لَنْ يَتَرَقَّبَ مَجِيئِي. إِنَّهُ يُقَطِّعُ أَشْجَارَهُ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ، فَمَا عَلَيَّ الْآنَ سِوَى أَنْ أَخْتَبِئَ بِالْقُرْبِ مِنْ مَكَانِ عَمَلِهِ، حَتَّى يَلِجَ بِنَفْسِهِ فِي فَمِي مُبَاشَرَةً. فَطَائِرُ السِّنْدِيَانِ سامي يَعْلَمُ أَنَّنِي كُنْتُ هُنَاكَ صَبَاحَ الْيَوْمِ، وَلَكِنَّهُ يَنَامُ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ، فَلَنْ يُطْلِقَ الْإِنْذَارَ. آهٍ، كَمْ سَيَكُونُ مَذَاقُ الْقُنْدُسِ طَيِّبًا!» ثُمَّ لَعِقَ فَاهُ مَرَّةً أُخْرَى، وَتَثَاءَبَ ثُمَّ أَغْلَقَ عَيْنَيْهِ لِيَغْفُوَ قَلِيلًا.

وَانْتَظَرَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ حَتَّى أَوَى قُرْصُ الشَّمْسِ الْأَحْمَرُ الْمُسْتَدِيرُ الْمَرِحُ إِلَى فِرَاشِهِ خَلْفَ التِّلَالِ الْأُرْجُوَانِيَّةِ، وَأَسْدَلَتِ الظِّلَالُ السَّوْدَاءُ أَسْتَارَهَا عَلَى الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ. ثُمَّ تَسَلَّلَ إِلَى الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ مُحْتَمِيًا بِأَكْثَرِ الظِّلَالِ سَوَادًا، وَقَدْ بَدَا هُوَ نَفْسُهُ أَشْبَهَ بِالظِّلِّ. كَانَتِ الْغَابَةُ مُظْلِمَةً، وَاتَّجَهَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ إِلَى بِرْكَةِ بادي الْجَدِيدَةِ مُبَاشَرَةً، مُهَرْوِلًا بِخِفَّةٍ دُونَ أَنْ يَصْدُرَ مِنْهُ صَوْتٌ. وَعِنْدَمَا اقْتَرَبَ مِنْ أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ الَّتِي كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ بادي يَنْوِي تَقْطِيعَهَا، تَسَلَّلَ إِلَى الْأَمَامِ بِبُطْءٍ وَحَذَرٍ شَدِيدَيْنِ. وَكَانَ السُّكُونُ مَا زَالَ مُخَيِّمًا عَلَى الْأَنْحَاءِ.

فَفَكَّرَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ قَائِلًا: «مُمْتَازٌ! لَقَدْ وَصَلْتُ قَبْلَهُ، وَالْآنَ مَا عَلَيَّ سِوَى أَنْ أَخْتَبِئَ؛ انْتِظَارًا لِخُرُوجِ بادي إِلَى ضَفَّةِ الْبِرْكَةِ.»

فَاسْتَلْقَى مُنْبَطِحًا خَلْفَ بَعْضِ الْأَغْصَانِ الْمُتَشَابِكَةِ بِالْقُرْبِ مِنَ الْمَمَرِّ الضَّيِّقِ الَّذِي صَنَعَهُ بادي مِنْ حَافَةِ الْمَاءِ وَانْتَظَرَ. كَانَ السُّكُونُ مُخَيِّمًا عَلَى الْأَنْحَاءِ، إِلَى حَدِّ أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّ بِإِمْكَانِهِ سَمَاعَ ضَرَبَاتِ قَلْبِهِ. كَانَ يَرَى النُّجُومَ الصَّغِيرَةَ مُتَلَأْلِئَةً فِي السَّمَاءِ، بَيْنَمَا تَلَأْلَأَ انْعِكَاسُهَا عَلَى مِيَاهِ بِرْكَةِ بادي. ظَلَّ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ مُنْتَظِرًا؛ فَهُوَ صَبُورٌ جِدًّا عِنْدَمَا يَكُونُ ثَمَّةَ مُقَابِلٌ لِصَبْرِهِ. فَمِنْ أَجْلِ الْحُصُولِ عَلَى عَشَاءٍ رَائِعٍ كَالْقُنْدُسِ بادي، كَانَ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يَصْبِرَ كَثِيرًا. فَانْتَظَرَ ثُمَّ انْتَظَرَ، وَبَدَا كُلُّ شَيْءٍ سَاكِنًا لِلْغَايَةِ كَأَنْ لَيْسَ مِنْ كَائِنٍ حَيٍّ سِوَى الْأَشْجَارِ. وَحَتَّى الْأَشْجَارُ بَدَتْ نَائِمَةً.

وَأَخِيرًا بَعْدَ فَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ جِدًّا، نَمَى إِلَى مَسَامِعِهِ صَوْتٌ خَافِتٌ فِي الْمَاءِ. فَانْتَصَبَتْ أُذُنَاهُ وَاخْتَلَسَ النَّظَرَ إِلَى الْبِرْكَةِ وَقَدْ لَاحَتْ فِي عَيْنَيْهِ الصَّفْرَاوَيْنِ نَظْرَةُ جُوعٍ نَهِمَةٌ؛ فَقَدْ كَانَ ثَمَّةَ خَطٌّ فِضِّيٌّ رَفِيعٌ فِي الْمَاءِ يَقْتَرِبُ تِجَاهَهُ. وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّ سِبَاحَةَ بادي هِيَ الَّتِي صَنَعَتْ ذَلِكَ الْخَطَّ. رَاحَ الْخَطُّ يَقْتَرِبُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ، فَضَحِكَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ فِي أَعْمَاقِهِ، دُونَ أَنْ يُصْدِرَ صَوْتًا. كَانَ بِإِمْكَانِهِ رُؤْيَةُ رَأْسِ بادي آنَئِذٍ، وَكَانَ قَادِمًا بِثِقَةٍ، كَأَنَّهُ لَا يَخْشَى شَيْئًا فِي الْعَالَمِ.

سَبَحَ بادي حَتَّى حَافَةِ الْبِرْكَةِ تَقْرِيبًا، ثُمَّ تَوَقَّفَ. وَفِي غُضُونِ بِضْعِ دَقَائِقَ بَدَأَ يَسْبَحُ مُجَدَّدًا، وَلَكِنْ فِي اتِّجَاهِ الْعَوْدَةِ إِلَى بَيْتِهِ هَذِهِ الْمَرَّةَ، وَبَدَا أَنَّهُ يَحْمِلُ شَيْئًا. كَانَ يَحْمِلُ قِطْعَةً مِنْ طَعَامِهِ الَّذِي قَطَعَهُ مِنَ الْأَشْجَارِ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَكَانَ يَحْمِلُهَا إِلَى مَخْزَنِهِ. ثُمَّ عَادَ لِيَنْقُلَ أُخْرَى. وَاسْتَمَرَّ عَلَى ذَلِكَ الْمِنْوَالِ، دُونَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الشَّاطِئِ وَلَوْ مَرَّةً. فَانْتَظَرَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ حَتَّى حَمَلَ بادي آخِرَ قِطْعَةِ خَشَبٍ إِلَى مَخْزَنِهِ، ثُمَّ ضَرَبَ الْمَاءَ بِذَيْلِهِ الْعَرِيضِ مُحْدِثًا صَوْتًا عَالِيًا، وَغَاصَ فِي الْمَاءِ لِيَخْتَفِيَ فِي بَيْتِهِ.

حِينَهَا نَهَضَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ وَانْطَلَقَ يَبْحَثُ عَنْ عَشَائِهِ فِي مَكَانٍ آخَرَ، وَقَدِ امْتَلَأَ قَلْبُهُ بِحَسْرَةٍ مَرِيرَةٍ.

الفصل الثامن عشر

خُطَّةُ الْقَيُّوطِ الْجَدِيدَةُ

عَلَى مَدَى ثَلَاثِ لَيَالٍ كَانَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ يَتَسَلَّلُ عَبْرَ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ مَعَ حُلُولِ خُيُوطِ الظَّلَامِ السَّوْدَاءِ وَيَخْتَبِئُ بَيْنَ أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ حَيْثُ اعْتَادَ الْقُنْدُسُ بادي أَنْ يُقَطِّعَ طَعَامَهُ، وَعَلَى مَدَى ثَلَاثِ لَيَالٍ لَمْ يَأْتِ بادي إِلَى الشَّاطِئِ؛ فَكُلَّ لَيْلَةٍ كَانَ يَبْدُو أَنَّ لَدَيْهِ مَا يَكْفِي مِنَ الْأَخْشَابِ فِي الْمَاءِ لِيُبْقِيَهُ مَشْغُولًا دُونَ تَقْطِيعِ الْمَزِيدِ مِنَ الْأَشْجَارِ. فَتَمَدَّدَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ هُنَاكَ، وَقَدْ تَحَوَّلَتْ نَظْرَةُ الْجُوعِ فِي عَيْنَيْهِ إِلَى نَظْرَةِ شَكٍّ ثُمَّ نَظْرَةِ رِيبَةٍ؛ فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْقُنْدُسُ بادي أَذْكَى مِمَّا تَصَوَّرَ؟ فَقَدْ بَدَا كَأَنَّ بادي يَعْلَمُ تَمَامًا أَنَّهُ يَخْتَبِئُ هُنَاكَ كُلَّ لَيْلَةٍ. نَعَمْ، هَكَذَا بَدَا الْأَمْرُ. فَخِلَالَ ثَلَاثِ لَيَالٍ لَمْ يُقَطِّعْ بادي شَجَرَةً وَاحِدَةً، وَكُلَّ لَيْلَةٍ يَكُونُ لَدَيْهِ قَدْرٌ وَفِيرٌ مِنَ الْأَخْشَابِ يَنْقُلُهُ إِلَى مَخْزَنِهِ فِي الْبِرْكَةِ.

فَفَكَّرَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ، أَثْنَاءَ عَوْدَتِهِ إِلَى الْبَيْتِ مُتْعَبًا فِي اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ وَقَدِ امْتَلَأَ قَلْبُهُ بِغَضَبٍ شَدِيدٍ، قَائِلًا: «مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَأْتِي إِلَى الشَّاطِئِ نَهَارًا لِيُقَطِّعَ أَشْجَارَهُ. لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ كَشَفَ أَمْرِي وَحْدَهُ؛ فَهُوَ لَا يَمْتَلِكُ الذَّكَاءَ الْكَافِيَ لِذَلِكَ. لَا بُدَّ أَنَّ أَحَدًا أَخْبَرَهُ. وَلَا أَحَدَ يَعْلَمُ بِذَهَابِي إِلَى هُنَاكَ سِوَى طَائِرِ السِّنْدِيَانِ سامي. لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْوَاشِيَ. أَظُنُّنِي سَأَذْهَبُ لِزِيَارَةِ بادي غَدًا أَثْنَاءَ النَّهَارِ، وَحِينَهَا سَنَرَى!»

مُشْكِلَةُ بَعْضِ الْأَذْكِيَاءِ أَنَّهُمْ لَا يُمْكِنُهُمْ أَبَدًا تَصْدِيقُ أَنَّ الْآخَرِينَ قَدْ يَكُونُونَ بِمِثْلِ ذَكَائِهِمْ؛ فَالْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ عِنْدَمَا زَارَ بِرْكَةَ بادي لِلْمَرَّةِ الْأُولَى خَلَّفَ وَرَاءَهُ أَثَرَ قَدَمِهِ فِي رُقْعَةٍ صَغِيرَةٍ مِنَ الطِّينِ الرَّطْبِ. وَلَوْ عَلِمَ ذَلِكَ، لَمَا صَدَّقَ أَنَّ بادي يَمْلِكُ الذَّكَاءَ الْكَافِيَ لِيُخَمِّنَ مَدْلُولَ ذَلِكَ الْأَثَرِ. لِذَا أَلْقَى الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ بِاللَّوْمِ كُلِّهِ عَلَى سامي،

وَفِي الصَّبَاحِ ذَاتِهِ، عِنْدَمَا حَلَّقَ سامي فَوْقَ الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ، اتَّهَمَهُ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ بِأَنَّهُ وَاشٍ، وَهَدَّدَهُ بِأَنْ يَفْعَلَ بِهِ أَفْظَعَ الْأَشْيَاءِ إِنْ أَمْسَكَ بِهِ يَوْمًا.

وَكَانَ سامي قَدْ طَارَ إِلَى الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ لِيُخْبِرَ الْقَيُّوطَ الْعَجُوزَ أَنَّ بادي كَانَ يُنْهِي كُلَّ عَمَلِهِ عَلَى الْبَرِّ أَثْنَاءَ النَّهَارِ. وَلَكِنْ عِنْدَمَا رَاحَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ يُنَادِيهِ بِالْوَاشِي وَيَتَّهِمُهُ بِأَنَّهُ أَنْذَرَ بادي، وَيُهَدِّدُهُ بِأَفْظَعِ الْأَشْيَاءِ، نَسِيَ كُلَّ غَضَبِهِ مِنْ بادي عَلَى الْفَوْرِ وَصَبَّ جَامَ غَضَبِهِ عَلَى الْقَيُّوطِ الْعَجُوزِ. فَأَطْلَقَ عَلَيْهِ كُلَّ حَصِيلَتِهِ الْكَبِيرَةِ مِنَ السِّبَابِ؛ إِذْ إِنَّ سامي سَلِيطُ اللِّسَانِ. وَعِنْدَمَا انْقَطَعَتْ أَنْفَاسُهُ، طَارَ إِلَى الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ؛ حَيْثُ اخْتَبَأَ فِي مَوْقِعٍ يُمْكِنُهُ مِنْهُ مُرَاقَبَةُ كُلِّ مَا يَحْدُثُ.

وَعَصْرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ جَرَّبَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ خُطَّتَهُ الْجَدِيدَةَ. فَتَسَلَّلَ إِلَى الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ، جَائِلًا بِبَصَرِهِ فِيمَا حَوْلَهُ كَيْ يَتَأَكَّدَ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَرَهُ. ثُمَّ تَسَلَّلَ بِنُعُومَةٍ بَالِغَةٍ عَبْرَ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ تِجَاهَ بِرْكَةِ الْقُنْدُسِ بادي. وَعِنْدَمَا دَنَا مِنْهَا، سَمِعَ صَوْتَ ارْتِطَامٍ، فَابْتَسَمَ؛ فَقَدْ عَرَفَ مَعْنَى ذَلِكَ الصَّوْتِ؛ فَمَعْنَاهُ أَنَّ بادي كَانَ يَعْمَلُ عَلَى تَقْطِيعِ الْأَشْجَارِ. فَتَسَلَّلَ إِلَى الْأَمَامِ مُنْبَطِحًا حَتَّى كَادَ بَطْنُهُ يَلْمِسُ الْأَرْضَ، شَيْئًا فَشَيْئًا، شَيْئًا فَشَيْئًا، مُتَوَخِّيًا أَشَدَّ الْحَذَرِ لِكَيْلَا يُحَرِّكَ وَلَوْ وَرَقَةَ شَجَرٍ. وَسُرْعَانَ مَا بَلَغَ مَوْضِعًا أَمْكَنَهُ رُؤْيَةُ أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ مِنْهُ، وَهُنَاكَ كَانَ بادي فِعْلًا، جَالِسًا عَلَى سَاقَيْهِ الْخَلْفِيَّتَيْنِ يَعْمَلُ بِكَدٍّ فِي تَقْطِيعِ شَجَرَةٍ أُخْرَى.

فَاسْتَلْقَى الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ بِضْعَ دَقَائِقَ لِيُرَاقِبَ الْمَشْهَدَ. ثُمَّ زَحَفَ مُقْتَرِبًا مِنْهُ أَكْثَرَ. ثُمَّ سَحَبَ سَاقَيْهِ تَحْتَهُ بِبُطْءٍ وَحَذَرٍ وَتَأَهَّبَ لِلْوَثْبِ. وَأَخِيرًا كَانَ الْقُنْدُسُ بادي فِي مَرْمَى انْقِضَاضِهِ! وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ انْطَلَقَتْ صَيْحَةٌ خَشِنَةٌ فَوْقَ رَأْسِهِ مُبَاشَرَةً: «لِصٌّ! لِصٌّ! لِصٌّ!»

كَانَتْ تِلْكَ صَيْحَةَ طَائِرِ السِّنْدِيَانِ سامي، الَّذِي تَبِعَهُ بِصَمْتٍ طَوَالَ الطَّرِيقِ. فَلَمْ يَتَوَقَّفِ الْقُنْدُسُ بادي وَلَوْ لِيَنْظُرَ حَوْلَهُ؛ فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ مَعْنَى تِلْكَ الصَّيْحَةِ، وَقَدْ هُرِعَ سَالِكًا مَمَرَّهُ الضَّيِّقَ إِلَى الْمِيَاهِ أَسْرَعَ مِنْ أَيِّ وَقْتٍ مَضَى. ثُمَّ قَفَزَ فِي الْمَاءِ مُحْدِثًا صَوْتًا عَالِيًا، بَيْنَمَا وَثَبَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ وَثْبَةً هَائِلَةً وَهَبَطَ عِنْدَ حَافَةِ الْبِرْكَةِ مُبَاشَرَةً.

الفصل التاسع عشر

صَداقَةُ بادي وَسامي

طَفَا الْقُنْدُسُ بادي عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ فِي بِرْكَتِهِ وَقَدْ أَسْفَرَ وَجْهُهُ عَنِ ابْتِسَامَةٍ شَدِيدَةِ الِاسْتِفْزَازِ لِلْقَيُّوطِ الْعَجُوزِ، الَّذِي كَادَ يُمْسِكُ بِهِ. وَكَانَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ يَرْتَجِفُ غَضَبًا عَلَى ضَفَّةِ الْبِرْكَةِ؛ فَقَدْ كَانَ وَاثِقًا لِلْغَايَةِ مِنْ نَيْلِهِ مِنْ بادي تِلْكَ الْمَرَّةَ، حَتَّى إِنَّهُ وَجَدَ صُعُوبَةً كَبِيرَةً فِي تَصْدِيقِ أَنَّ بادي أَفْلَتَ مِنْهُ حَقًّا. وَكَشَّرَ عَنْ أَنْيَابِهِ الطَّوِيلَةِ الْقَاسِيَةِ، فَبَدَا شَرِسًا وَقَبِيحًا لِلْغَايَةِ.

فَنَادَاهُ بادي قَائِلًا: «تَعَالَ إِلَى هُنَا؛ فَالْمِيَاهُ رَائِعَةٌ!»

لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ تَصَرُّفًا لَطِيفًا مِنْ بادي بِالطَّبْعِ؛ فَقَدْ أَدَّى إِلَى زِيَادَةِ غَضَبِ الْقَيُّوطِ الْعَجُوزِ فَحَسْبُ. أَدْرَكَ بادي جَيِّدًا أَنَّهُ فِي أَمَانٍ تَامٍّ؛ وَمِنْ ثَمَّ لَمْ يَسْتَطِعْ مُقَاوَمَةَ إِغْرَاءِ التَّلَفُّظِ بِبَعْضِ الْكَلِمَاتِ الْقَاسِيَةِ؛ فَقَدِ اضْطُرَّ إِلَى تَوَخِّي الْحَذَرِ لِأَيَّامٍ خَوْفًا مِنْ أَنْ يُمْسَكَ بِهِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُجِيدَ عَمَلَهُ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ مَا يَخْشَاهُ، وَمَا زَالَ أَمَامَهُ تَجْهِيزَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَجْلِ الشِّتَاءِ؛ لِذَا أَخْبَرَ الْقَيُّوطَ الْعَجُوزَ عَنْ رَأْيِهِ فِيهِ دُونَ مُوارَبَةٍ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِالذَّكَاءِ الَّذِي يَظُنُّهُ، وَإِلَّا فَمَا كَانَ تَرَكَ أَثَرَ قَدَمِهِ فِي الطِّينِ لِيَكْشِفَ أَمْرَهُ.

عِنْدَمَا سَمِعَ طَائِرُ السِّنْدِيَانِ سامي ذَلِكَ الْكَلَامَ — إِذْ كَانَ يُصْغِي وَيَضْحَكُ مِمَّا يُصْغِي إِلَيْهِ — طَارَ إِلَى حَيْثُ كَادَ يَكُونُ فِي مُتَنَاوَلِ يَدِ الْقَيُّوطِ الْعَجُوزِ، ثُمَّ أَطْلَقَ لِسَانَهُ، وَيَقُولُ الْبَعْضُ كَمَا تَعْرِفُونَ إِنَّ لِسَانَ سامي بَالِغُ الطُّولِ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ. لَيْسَ ذَلِكَ

صَحِيحًا بِالطَّبْعِ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَمَا يَشْرَعُ فِي الْإِسَاءَةِ إِلَى النَّاسِ يَبْدُو أَكِيدًا أَنَّ ذَلِكَ الْقَوْلَ صَحِيحٌ. وَقَدْ نَعَتَ الْقَيُّوطَ الْعَجُوزَ بِكُلِّ مَا عَرَفَهُ مِنْ سِبَابٍ؛ فَنَعَتَهُ بِالْمُتَسَلِّلِ وَاللِّصِّ وَالْجَبَانِ وَالْمُسْتَأْسِدِ عَلَى الضُّعَفَاءِ، وَأَلْفَاظٍ أُخْرَى كَثِيرَةٍ.

وَصَاحَ سامي قَائِلًا: «قُلْتَ إِنَّنِي أَنْذَرْتُ بادي بِمُحَاوَلَتِكِ الْإِمْسَاكَ بِهِ، وَأَنَّكَ لِذَلِكَ لَمْ تَجِدْهُ يَعْمَلُ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ، وَطَوَالَ الْوَقْتِ كُنْتَ أَنْتَ مَنْ أَنْذَرَهُ! كُنْتُ أَظُنُّكَ ذَكِيًّا، وَلَكِنِّي عَرَفْتُ الْحَقِيقَةَ الْآنَ؛ فَذَكَاءُ بادي ضِعْفُ ذَكَائِكَ.»

السَّيِّدُ الْقَيُّوطُ شَدِيدُ الْمَكْرِ،\
السَّيِّدُ الْقَيُّوطُ بَارِعٌ وَرَشِيقٌ،\
إِنْ صَدَّقْتَ مَا سَمِعْتَهُ.\
فَالسَّيِّدُ الْقَيُّوطُ لَا يَتَمَتَّعُ بِتِلْكَ السِّمَاتِ؛\
السَّيِّدُ الْقَيُّوطُ غَبِيٌّ وَأَعْمَى،\
وَلَا يُمْكِنُهُ الْإِمْسَاكُ بِبَرْغُوثٍ عَلَى أُذُنِهِ.

ضَحِكَ الْقُنْدُسُ بادي حَتَّى دَمَعَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْأَبْيَاتِ الْحَمْقَاءِ الَّتِي أَلْقَاهَا سامي، وَلَكِنَّهَا زَادَتِ الْقَيُّوطَ الْعَجُوزَ غَضَبًا عَلَى غَضَبٍ. كَانَ غَاضِبًا مِنْ بادي لِأَنَّهُ أَفْلَتَ مِنْ يَدَيْهِ، وَغَاضِبًا مِنْ سامي، بَلْ شَدِيدَ الْغَضَبِ، وَكَانَ أَسْوَأُ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّهُ عَاجِزٌ عَنِ الْإِمْسَاكِ بِأَيِّهِمَا؛ فَأَحَدُهُمَا كَانَ بَيْتُهُ فِي الْمَاءِ وَالْآخَرُ كَانَ بَيْتُهُ فِي الْهَوَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي إِمْكَانِهِ أَنْ يَتْبَعَ أَيًّا مِنْهُمَا فِي بَيْتِهِ. وَفِي النِّهَايَةِ فَهِمَ أَنَّهُ لَا جَدْوَى مِنَ الْبَقَاءِ؛ حَيْثُ صَارَ أُضْحُوكَةً، فَانْطَلَقَ إِلَى الْغَابَةِ، وَهُوَ يُرْغِي وَيُزْبِدُ.

فَمَا إِنِ اخْتَفَى عَنِ الْأَنْظَارِ حَتَّى الْتَفَتَ بادي إِلَى سامي.

وَقَالَ: «يَا سَيِّدِي طَائِرَ السِّنْدِيَانِ»؛ فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ كَمْ يَطِيبُ لِسامي أَنْ يُنَادَى بِسَيِّدِي، وَأَرْدَفَ: «يَا سَيِّدِي طَائِرَ السِّنْدِيَانِ، قَدْ أَسْدَيْتَ لِي مَعْرُوفًا عَظِيمًا الْيَوْمَ، وَلَنْ أَنْسَاهُ. يُمْكِنُكَ أَنْ تَنْعَتَنِي بِمَا تَشَاءُ وَتَصِيحُ بِي كَمَا تَشَاءُ، وَلَكِنَّكَ لَنْ تَجِدَ أَيَّ رِضًا فِي ذَلِكَ؛ لِأَنِّي لَنْ أَغْضَبَ. سَأَقُولُ لِنَفْسِي «لَقَدْ أَنْقَذَ سَيِّدِي طَائِرُ السِّنْدِيَانِ حَيَاتِي ذَلِكَ الْيَوْمَ»، وَلَنْ أَتَضَايَقَ مِمَّا تَقُولُ.»

فَأَوْرَثَ ذَلِكَ الْكَلَامُ سامي شُعُورًا بِفَخْرٍ بَالِغٍ وَسَعَادَةٍ غَامِرَةٍ؛ فَمِنَ النَّادِرِ جِدًّا أَنْ يَسْمَعَ كَلَامًا لَطِيفًا عَنْهُ؛ فَطَارَ إِلَى أَحَدِ جُذُوعِ الْأَشْجَارِ الَّتِي قَطَعَهَا بادي، وَقَالَ: «لِنَكُنْ أَصْدِقَاءَ.»

فَأَجَابَهُ بادي قَائِلًا: «بِكُلِّ سُرُورٍ!»

الفصل العشرون

سامي يَعْرِضُ الْمُسَاعَدَةَ

جَلَسَ بادي يَنْظُرُ مُتَأَمِّلًا إِلَى أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ الَّتِي يَجِبُ عَلَيْهِ تَقْطِيعُهَا حَتَّى يُكْمِلَ مَخْزُونَهُ مِنَ الْغِذَاءِ لِفَصْلِ الشِّتَاءِ؛ فَقَدْ قُطِعَتْ جَمِيعُ الْأَشْجَارِ الْقَرِيبَةِ مِنْ حَافَةِ الْبِرْكَةِ، أَمَّا الْأَشْجَارُ الْأُخْرَى فَكَانَتْ مُتَنَاثِرَةً عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ عَنْهَا بَعْضَ الشَّيْءِ. ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ عَالٍ: «لَا أَدْرِي. لَا أَدْرِي.»

فَسَأَلَهُ طَائِرُ السِّنْدِيَانِ سامي، الَّذِي صَارَ شَدِيدَ الِاهْتِمَامِ بِمَا يَفْعَلُهُ بادي بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَا صَدِيقَيْنِ: «مَا الَّذِي لَا تَدْرِيهِ؟»

فَأَجَابَهُ بادي قَائِلًا: «لَا أَدْرِي كَيْفَ أَحْصُلُ عَلَى تِلْكَ الْأَشْجَارِ. فَالْآنَ وَقَدْ صَارَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ لِي بِالْمِرْصَادِ، لَمْ يَعُدِ ابْتِعَادِي عَنِ الْبِرْكَةِ آمِنًا. أَظُنُّ أَنَّ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ أَحْفِرَ قَنَاةً إِلَى أَقْرَبِ الْأَشْجَارِ ثُمَّ أَدْفَعَهَا عَبْرَ الْقَنَاةِ إِلَى الْبِرْكَةِ، وَلَكِنْ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ أَعْمَلَ وَأُبْقِيَ عَيْنًا يَقِظَةً عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ. أَظُنُّنِي سَأَكْتَفِي بِبَعْضِ أَشْجَارِ جَارِ الْمَاءِ الَّتِي تَنْمُو بِالْقُرْبِ مِنَ الْمَاءِ، وَلَكِنَّ لِحَاءَ أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ أَطْيَبُ بِكَثِيرٍ، حَتَّى إِنَّنِي أَتَمَنَّى لَوْ كَانَ بِإِمْكَانِي أَنْ أَحْصُلَ عَلَيْهَا.»

فَسَأَلَهُ سامي بَغْتَةً: «مَاذَا تَقْصِدُ بِالْقَنَاةِ؟»

فَأَجَابَهُ بادي قَائِلًا: «الْقَنَاةُ؟ إِنَّهَا نَوْعٌ مِنَ الْمَصَارِفِ الَّتِي يُمْكِنُ لِلْمَاءِ أَنْ يَجْرِيَ فِيهَا.»

فَأَوْمَأَ سامي بِرَأْسِهِ قَائِلًا: «رَأَيْتُ الْمُزَارِعَ براون يَحْفِرُ قَنَاةً عِنْدَ الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ بَدَا شَاقًّا. لَمْ أَتَخَيَّلْ أَنَّ أَحَدًا غَيْرَهُ يُمْكِنُهُ الْقِيَامُ بِهِ. أَتَقْصِدُ حَقًّا أَنَّهُ يُمْكِنُكَ أَنْ تَحْفِرَ قَنَاةً يَا بادي؟!»

فَأَجَابَهُ بادي، وَقَدِ اصْطَبَغَ صَوْتُهُ بِالدَّهْشَةِ: «طَبْعًا أَقْصِدُ ذَلِكَ؛ فَقَدْ شَارَكْتُ فِي حَفْرِ الْعَدِيدِ مِنَ الْقَنَوَاتِ. حَرِيٌّ بِكَ أَنْ تَرَى بَعْضَهَا فِي الْمَكَانِ الَّذِي أَتَيْتَ مِنْهُ.»

فَرَدَّ عَلَيْهِ سامي قَائِلًا: «أَوَدُّ ذَلِكَ. أَظُنُّهُ أَمْرًا شَدِيدَ الرَّوْعَةِ. لَا أَتَخَيَّلُ كَيْفَ تَفْعَلُهُ.»

فَرَدَّ عَلَيْهِ بادي قَائِلًا: «إِنَّهُ أَمْرٌ هَيِّنٌ إِنْ عَرَفْتَ الطَّرِيقَةَ. لَوْ كَانَ لَدَيَّ الْجُرْأَةُ لَأَرَيْتُكَ.»

فَخَطَرَتْ بِبَالِ سامي فِكْرَةٌ مُفَاجِئَةٌ حَتَّى كَادَ يَشْهَقُ، فَهَتَفَ: «مَا رَأْيُكَ أَنْ تَعْمَلَ أَنْتَ وَأُرَاقِبُ أَنَا الْمَكَانَ؟ فَعَيْنَايَ ثَاقِبَتَانِ كَمَا تَعْلَمُ.»

هَتَفَ بادي بِحَمَاسٍ قَائِلًا: «حَقًّا؟! سَيَكُونُ ذَلِكَ أَمْرًا رَائِعًا لِلْغَايَةِ. فَبَصَرُكَ أَقْوَى مِنْ أَيِّ أَحَدٍ أَعْرِفُهُ، وَسَأَشْعُرُ بِأَمَانٍ تَامٍّ إِذَا تَوَلَّيْتَ أَنْتَ الْحِرَاسَةَ. وَلَكِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَتَسَبَّبَ فِي مَشَقَّةٍ لَكَ يَا سَيِّدِي طَائِرَ السِّنْدِيَانِ.»

فَرَدَّ عَلَيْهِ سامي قَائِلًا: «لَنْ يَكُونَ فِي الْأَمْرِ أَيُّ مَشَقَّةٍ، فَذَلِكَ مِنْ دَوَاعِي سُرُورِي حَقًّا.» وَقَدْ أَحَسَّ سامي فَخْرًا بَالِغًا لَدَى قَوْلِ بادي إِنَّ عَيْنَيْهِ ثَاقِبَتَانِ. ثُمَّ سَأَلَ: «مَتَى سَتَشْرَعُ فِي الْعَمَلِ؟»

فَقَالَ بادي: «فَوْرًا، إِنْ تَفَضَّلْتَ بِإِلْقَاءِ نَظْرَةٍ عَلَى الْمَكَانِ لِتَرَى إِنْ كَانَ خُرُوجِي مِنَ الْمَاءِ آمِنًا تَمَامًا.»

فَلَمْ يَنْتَظِرْ سامي لِيَسْمَعَ الْمَزِيدَ، بَلْ بَسَطَ جَنَاحَيْهِ الْأَزْرَقَيْنِ الْجَمِيلَيْنِ وَانْطَلَقَ عَبْرَ الْغَابَةِ إِلَى الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ. فَشَاهَدَ بادي رَحِيلَهُ وَقَدْ بَدَتْ عَلَيْهِ الْحَيْرَةُ وَالْخَيْبَةُ. وَفَكَّرَ قَائِلًا: «عَجَبًا! ظَنَنْتُهُ يَعْنِي مَا قَالَهُ حَقًّا، وَهَا قَدْ مَضَى دُونَ حَتَّى أَنْ يُوَدِّعَنِي!»

وَبَعْدَ بُرْهَةٍ عَادَ سامي مُتَقَطِّعَ الْأَنْفَاسِ، وَقَالَ لَاهِثًا: «الْأُمُورُ عَلَى مَا يُرَامُ. يُمْكِنُكَ الْبَدْءُ فِي الْعَمَلِ مَتَى شِئْتَ.»

فَبَدَا بادي مُحْتَارًا أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ وَقْتٍ مَضَى، وَسَأَلَ: «كَيْفَ عَرَفْتَ؟! لَمْ أَرَكَ تَجُولُ بِبَصَرِكَ فِي الْمَكَانِ.»

فَرَدَّ عَلَيْهِ سامي قَائِلًا: «لَقَدْ قُمْتُ بِمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ؛ فَلَوْ كَانَ الْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ مُخْتَبِئًا فِي مَكَانٍ مَا بِالْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ لَاسْتَغْرَقَ عُثُورِي عَلَيْهِ بَعْضَ الْوَقْتِ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ مُخْتَبِئًا فِيهَا؛ فَقَدْ طِرْتُ إِلَى بَيْتِهِ فِي الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ لِأَرَى إِنْ كَانَ هُنَاكَ أَمْ لَا، وَوَجَدْتُهُ

جَالِسًا تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ بَادِيًا عَلَيْهِ أَشَدُّ الْغَضَبِ. لَا أَظُنُّهُ سَيَعُودُ هُنَا هَذَا الصَّبَاحَ، وَلَكِنَّنِي سَأُرَاقِبُ الْمَكَانَ جَيِّدًا أَثْنَاءَ قِيَامِكَ بِعَمَلِكَ.»

فَانْحَنَى بادي لِسامي انْحِنَاءَةً صَغِيرَةً، وَقَالَ: «إِنَّكَ ذَكِيٌّ حَقًّا يَا سَيِّدِي طَائِرَ السِّنْدِيَانِ. مَا كَانَ لِيَخْطُرَ بِبَالِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَى بَيْتِ الْقَيُّوطِ الْعَجُوزِ لِأَرَى إِنْ كَانَ هُنَاكَ أَمْ لَا. سَأَشْعُرُ بِأَمَانٍ تَامٍّ لَدَى تَوَلِّيكَ مُهِمَّةَ الْحِرَاسَةِ. وَالْآنَ سَأَشْرَعُ فِي الْعَمَلِ.»

الفصل الحادي والعشرون

بادي وَسامي يَتَعاوَنانِ

مَكَثَ فَأْرُ الْمِسْكِ جيري فِي بَيْتِهِ بِالْبِرْكَةِ الْبَاسِمَةِ أَيَّامًا عِدَّةً. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ الْبَقَاءَ هُنَاكَ فَتْرَةً طَوِيلَةً. كَلَّا، لَمْ يَسْتَطِعْ؛ فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَعُودَ لِيَرَى مَا يَفْعَلُهُ ابْنُ عَمِّهِ الضَّخْمُ، الْقُنْدُسُ بادي. فَمَا إِنِ اطْمَأَنَّ إِلَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ فِي الْبِرْكَةِ الْبَاسِمَةِ، حَتَّى هُرِعَ عَائِدًا عَبْرَ الْجَدْوَلِ الضَّاحِكِ إِلَى بِرْكَةِ بادي، فِي جَوْفِ الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ. وَمَا إِنْ صَارَتْ فِي مَرْمَى بَصَرِهِ حَتَّى بَدَأَ يَبْحَثُ عَنْ بادي بِلَهْفَةٍ. فِي الْبِدَايَةِ لَمْ يَرَهُ، ثُمَّ تَوَقَّفَ وَتَطَلَّعَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ بادي يُقَطِّعُ فِيهِ أَشْجَارَ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ لِيَحْصُلَ عَلَى غِذَائِهِ. فَقَدْ كَانَ ثَمَّةَ شَيْءٌ مَا يَجْرِي هُنَاكَ، شَيْءٌ عَجِيبٌ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ اسْتِيعَابِهِ.

وَفِي ذَلِكَ الْحِينِ، أَتَى طَائِرُ السِّنْدِيَانِ سامي مُحَلِّقًا فَوْقَهُ.

فَسَأَلَهُ جيري: «مَا الَّذِي يَفْعَلُهُ بادي؟»

فَهَبَطَ سامي عَلَى قِمَّةِ شَجَرَةٍ مِنْ أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ وَنَفَشَ رِيشَهُ كُلَّهُ فِي تَبَاهٍ وَاضِحٍ، ثُمَّ قَالَ: «أُوهْ، أَنَا وَبادي نَبْنِي شَيْئًا!»

فَضَحِكَ جيري قَائِلًا: «أَنْتَ! أَنْتَ وَبادي! هَا هَا! أَنْتَ وَبادي تَبْنِيَانِ شَيْئًا!»

فَرَدَّ عَلَيْهِ سامي بِحِدَّةٍ وَغَضَبٍ قَائِلًا: «نَعَمْ، أَنَا! هَذَا مَا قُلْتُهُ؛ أَنَا وَبادي نَبْنِي شَيْئًا.»

كَانَ جيري قَدْ بَدَأَ يَسْبَحُ عَبْرَ الْبِرْكَةِ حِينَئِذٍ، بَيْنَمَا طَارَ سامي فَوْقَهَا. فَهَتَفَ بِهِ جيري قَائِلًا: «لِمَ لَا تَقُولُ الْحَقِيقَةَ يَا سامي، وَتَقُولُ إِنَّ بادي يَبْنِي شَيْئًا بَيْنَمَا تُسَبِّبُ لَهُ أَنْتَ كُلَّ مَا يُمْكِنُكَ مِنْ مَتَاعِبَ؟!»

فَبَرَقَتْ عَيْنَا سامي فِي غَضَبٍ، وَانْقَضَّ تِجَاهَ رَأْسِ جيري الْبُنِّيِّ الصَّغِيرِ، صَارِخًا: «لَيْسَ صَحِيحًا! فَلْتَسْأَلْ بادي عَمَّا إِذَا كُنْتُ أُسَاعِدُهُ أَمْ لَا!»

نَزَلَ جيري تَحْتَ سَطْحِ الْمَاءِ فِرَارًا مِنْ مِنْقَارِ سامي الْحَادِّ. وَعِنْدَمَا صَعِدَ مُجَدَّدًا، كَانَ سامي فِي الدَّغَلِ الصَّغِيرِ الْمُكَوَّنِ مِنْ أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ حَيْثُ كَانَ بادي يَعْمَلُ بِكَدٍّ. ثُمَّ اكْتَشَفَ جيري شَيْئًا. فَمَاذَا كَانَ؟ كَانَ مَمَرًّا مَائِيًّا صَغِيرًا مُمْتَدًّا حَتَّى أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ. وَهُنَاكَ، عِنْدَ نِهَايَةِ الْمَمَرِّ الْمَائِيِّ، كَانَ بادي يَعْمَلُ بِكَدٍّ. فَكَانَ يَحْفِرُ الْأَرْضَ وَيُكَوِّمُ التُّرَابَ عَلَى أَحَدِ جَانِبَيِ الْمَمَرِّ بِإِتْقَانٍ بَالِغٍ. فَقَدْ كَانَ، فِي الْوَاقِعِ، يَعْمَلُ عَلَى مَدِّ الْمَمَرِّ الْمَائِيِّ. فَسَبَحَ جيري عَبْرَ ذَلِكَ الْمَمَرِّ حَتَّى وَصَلَ إِلَى حَيْثُ كَانَ بادي يَعْمَلُ. ثُمَّ قَالَ لَهُ: «صَبَاحُ الْخَيْرِ يَا ابْنَ الْعَمِّ بادي. مَاذَا تَفْعَلُ؟»

فَأَجَابَهُ بادي قَائِلًا: «أُوهْ، أَنَا وَسامي نَحْفِرُ قَنَاةً.»

فَنَظَرَ سامي إِلَى جيري نَظْرَةً مُنْتَصِرَةً، بَيْنَمَا نَظَرَ جيري إِلَى بادي كَأَنَّمَا ظَنَّهُ يَمْزَحُ.

وَسَأَلَ بادي: «سامي؟! وَمَا صِلَةُ سامي بِالْأَمْرِ؟!»

فَرَدَّ بادي قَائِلًا: «صِلَةٌ قَوِيَّةٌ؛ فَهُوَ يَتَوَلَّى الْحِرَاسَةَ بَيْنَمَا أَعْمَلُ. وَلَوْ لَمْ يَتَوَلَّهَا، لَمَا اسْتَطَعْتُ الْعَمَلَ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُ حَفْرَ الْقَنَاةِ؛ فَالْقَيُّوطُ الْعَجُوزُ يُحَاوِلُ الْإِمْسَاكَ بِي، وَمَا كُنْتُ لِأَجْرُؤَ عَلَى الْعَمَلِ عَلَى الْبَرِّ لَوْمَا كُنْتُ وَاثِقًا مِنْ أَنَّ أَقْوَى عَيْنَيْنِ فِي الْغَابَةِ تَحْرُسَانِنِي مِنَ الْخَطَرِ.»

بَدَا عَلَى سامي سُرُورٌ وَفَخْرٌ بَالِغَانِ.

بَيْنَمَا أَنْهَى بادي حَدِيثَهُ بِعَيْنَيْنِ بَاسِمَتَيْنِ قَائِلًا: «لِذَا يَتَطَلَّبُ صُنْعُ تِلْكَ الْقَنَاةِ عَمَلًا مِنَّا نَحْنُ الِاثْنَيْنِ؛ أَنَا أَحْفِرُ وَسامي يَحْرُسُنِي؛ وَلِذَا فَإِنَّنَا نَحْفِرُهَا مَعًا.»

فَقَالَ جيري بِبُطْءٍ: «فَهِمْتُ.» ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى سامي وَقَالَ: «أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ يَا سامي. حَقًّا أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ.»

فَرَدَّ عَلَيْهِ سامي بِمَرَحٍ قَائِلًا: «لَا بَأْسَ. وَمَا رَأْيُكَ فِي الْقَنَاةِ الَّتِي صَنَعْنَاهَا؟»

فَقَالَ لَهُ جيري: «أَظُنُّهَا رَائِعَةً.»

وَقَدْ كَانَتْ قَنَاةً جَمِيلَةً حَقًّا، مُسْتَقِيمَةً وَوَاسِعَةً وَعَمِيقَةً بِمَا يَكْفِي لِأَنْ يَسْبَحَ فِيهَا بادي وَيَدْفَعَ بِجُذُوعِ الشَّجَرِ الَّتِي يُقَطِّعُهَا إِلَى الْبِرْكَةِ. نَعَمْ، كَانَتْ قَنَاةً جَمِيلَةً حَقًّا.

الفصل الثاني والعشرون

بادي يَفْرَغُ مِنْ حَصَادِهِ

بِلِسَانٍ لَاذِعٍ وَعَيْنَيْنِ ثَاقِبَتَيْنِ،
يَقِينِي سامي الْمُفَاجَآتِ.
وَلَوْلَا سامي السِّنْدِيَانُ،
مَا حَقَّقْتُ الْيَوْمَ إِنْجَازَاتٍ.

عِنْدَمَا صَادَفَ أَنْ سَمِعَ سامي الْقُنْدُسَ بادي يَقُولُ ذَلِكَ الْكَلَامَ لِفَأْرِ الْمِسْكِ جيري، شَعَرَ بِالْفَخْرِ يَمْلَؤُهُ؛ فَقَدْ كَانَ مُعْتَادًا تَمَامًا عَلَى سَمَاعِ كَلَامٍ سَيِّئٍ عَنْهُ، حَتَّى إِنَّ سَمَاعَهُ مِثْلَ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ الطَّيِّبَةِ عَنْهُ أَوْرَثَهُ سُرُورًا بَالِغًا؛ فَنَسِيَ فَوْرًا كُلَّ الْمُضَايَقَاتِ الَّتِي وَجَّهَهَا لِبادي عِنْدَمَا رَآهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَأَنَّهُ نَعَتَهُ بِاللِّصِّ لِأَنَّهُ قَطَعَ أَشْجَارَ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ الَّتِي كَانَ يَحْتَاجُهَا. فَنَسِيَ كُلَّ ذَلِكَ، وَنَسِيَ أَنَّ بادي جَعَلَ مِنْهُ أُضْحُوكَةَ الْغَابَةِ وَالْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ بِتَقْطِيعِهِ الشَّجَرَةَ ذَاتَهَا حَيْثُ كَانَ جَالِسًا. نَسِيَ كُلَّ شَيْءٍ سِوَى أَنَّ بادي عَهِدَ إِلَيْهِ بِمُهِمَّةِ الْحِرَاسَةِ وَأَنَّهُ يَقُولُ عَنْهُ كَلِمَاتٍ طَيِّبَةً الْآنَ. فَقَرَّرَ أَنْ يَكُونَ جَدِيرًا بِكُلِّ مَا قَالَهُ عَنْهُ بادي مِنْ كَلِمَاتٍ طَيِّبَةٍ، وَظَنَّ أَنَّ بادي هُوَ أَفْضَلُ مَخْلُوقَاتِ الْعَالَمِ.

أَمَّا فَأْرُ الْمِسْكِ جيري، فَبَدَا مُتَشَكِّكًا؛ فَهُوَ لَمْ يَكُنْ يَثِقُ بِسامي، وَكَانَ يَحْرِصُ عَلَى عَدَمِ الِابْتِعَادِ عَنِ الْمَاءِ عِنْدَمَا عَلِمَ أَنَّ الْقَيُّوطَ الْعَجُوزَ فِي الْجِوَارِ. وَلَكِنَّ بادي وَاصَلَ عَمَلَهُ كَأَنْ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يَخْشَاهُ فِي الْعَالَمِ.

وَقَالَ لِنَفْسِهِ: «إِنَّ السَّبِيلَ لِجَعْلِ النَّاسِ يَرْغَبُونَ فِي أَنْ يَكُونُوا مَحَلَّ ثِقَةٍ هُوَ أَنْ تَثِقَ بِهِمْ. فَإِذَا أَظْهَرْتُ لِسامي أَنَّنِي فِي الْوَاقِعِ لَا أَثِقُ بِهِ، فَسَيَظُنُّ أَنَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنَ الْمُحَاوَلَةِ

وَسَيَسْتَسْلِمُ. وَلَكِنِّي إِذَا وَثِقْتُ بِهِ حَقًّا، وَعَرَفَ أَنِّي أَثِقُ بِهِ، فَسَيَكُونُ أَفْضَلَ حَارِسٍ فِي الْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ.»

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقُنْدُسَ بادي يَتَحَلَّى بِقَدْرٍ كَبِيرٍ مِنَ الْحِكْمَةِ، فَقَدْ تَحَقَّقَ ظَنُّهُ. فَكَانَ سامي يَأْتِي بَشُوشًا فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ مِنْ كُلِّ يَوْمٍ. وَكَانَ يَتَأَكَّدُ مِنْ عَدَمِ وُجُودِ الْقَيُّوطِ الْعَجُوزِ فِي أَيِّ مَكَانٍ بِالْغَابَةِ الْخَضْرَاءِ، ثُمَّ يَسْتَقِرُّ مُرْتَاحًا عَلَى قِمَّةِ شَجَرَةِ صَنَوْبَرٍ عَالِيَةٍ؛ حَيْثُ يُمْكِنُ لَهُ مُشَاهَدَةُ كُلِّ مَا يَحْدُثُ بَيْنَمَا يَقُومُ بادي بِعَمَلِه.

وَكَانَ بادي قَدِ انْتَهَى مِنْ حَفْرِ الْقَنَاةِ، وَكَانَتْ قَنَاةً جَمِيلَةً، تَتَّجِهُ مِنَ الْبِرْكَةِ إِلَى أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ مُبَاشَرَةً. فَمَا إِنِ انْتَهَى مِنْ حَفْرِهَا، حَتَّى بَدَأَ يُقَطِّعُ الْأَشْجَارَ. وَبِمُجَرَّدِ أَنْ تَسْقُطَ إِحْدَاهَا، كَانَ يُقَطِّعُهَا إِلَى أَجْزَاءٍ قَصِيرَةٍ وَيُدَحْرِجُهَا إِلَى الْقَنَاةِ، ثُمَّ يَدْفَعُهَا إِلَى بِرْكَتِهِ وَمِنْهَا إِلَى مَخْزَنِهِ. وَكَانَ يَأْخُذُ الْفُرُوعَ الْكَبِيرَةَ، الَّتِي يَكْسُوهَا اللِّحَاءُ الطَّرِيُّ الْحُلْوُ، بِالطَّرِيقَةِ ذَاتِهَا، فَبادي لَا يُهْدِرُ شَيْئًا أَبَدًا.

وَبَعْدَ فَتْرَةٍ، ذَهَبَ إِلَى مَخْزَنِهِ، الَّذِي يَتَكَوَّنُ مِنْ كَوْمَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ جُذُوعِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ وَفُرُوعِهِ لَا أَكْثَرَ، فِي بِرْكَتِهِ بِالْقُرْبِ مِنْ بَيْتِهِ. فَتَفَحَّصَ الْمَخْزَنَ بِحِرْصٍ بَالِغٍ. ثُمَّ سَبَحَ عَائِدًا وَخَرَجَ إِلَى ضَفَّةِ الْقَنَاةِ.

وَقَالَ: «يَا سَيِّدِي طَائِرَ السِّنْدِيَانِ، أَظُنُّ عَمَلَنَا قَدِ انْتَهَى تَقْرِيبًا.»

فَهَتَفَ سامي: «مَاذَا؟! أَلَنْ تُقَطِّعَ بَقِيَّةَ أَشْجَارِ الْحَوْرِ الرَّجْرَاجِ؟»

فَأَجَابَهُ بادي قَائِلًا: «كَلَّا، لَا بُدَّ أَنْ نَتَوَقَّفَ؛ فَلَدَيَّ مِنَ الطَّعَامِ مَا يَكْفِينِي طَوَالَ الشِّتَاءِ. فَأَنَا أَوَدُّ الِاحْتِفَاظَ بِتِلْكَ الْأَشْجَارِ مِنْ أَجْلِ الْعَامِ الْقَادِمِ. أَمَّا الْآنَ فَقَدْ صَارَ لَدَيَّ مَخْزُونٌ كَافٍ لِلشِّتَاءِ. وَأَظُنُّنِي سَأَسْتَرِيحُ بَعْضَ الْوَقْتِ.»

فَبَدَا عَلَى سامي الْإِحْبَاطُ؛ فَكَانَ قَدْ بَدَأَ يَكْتَشِفُ لِتَوِّهِ أَنَّ أَعْظَمَ سَعَادَةٍ فِي الْعَالَمِ مَنْبَعُهَا السَّعْيُ فِي حَوَائِجِ الْآخَرِينَ. وَلِلْمَرَّةِ الْأُولَى فِي حَيَاتِهِ ثَمَّةَ أَحَدٌ يَرْغَبُ فِي وُجُودِهِ؛ وَهُوَ مَا مَنَحَهُ شُعُورًا رَائِعًا فِي أَعْمَاقِهِ! وَرُبَّمَا كَانَتْ ذِكْرَى ذَلِكَ الشُّعُورِ الرَّائِعِ هِيَ السَّبَبَ فِي رَغْبَتِهِ وَلَهْفَتِهِ الشَّدِيدَتَيْنِ فِي مُسَاعَدَةِ الْغَيْرِ فِيمَا بَعْدُ.